رواية

محمد إبراهيم

أوديف

غربان فأل حسن، غراب وحيد نذير شؤم

كيان
Kayan
KAYAN PUBLISHING

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أوديف

غرابان فأل حسن، غراب وحيد نذير شؤم

رواية..

الكاتب: ممد إبراهيم

فمن مُبلغٌ عني الـحُسينَ رسالـةً
وإن كَـرِهَـتـهَـا أنـفــسٌ وقُــلــوبُ
ذبـيـحٌ بـلا جـُرم كأن قـمـيـصـهُ
صـبـيـغٌ بــماء الأرجـوانِ خَـضـيـبُ
إلى جدي أبي عبدالله الحسين، سلاما على الحسين وعلى آل الحسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء

وداعا يا صديقي المخلص، لقد عرفنا بعضنا منذ كنا في سني التاسعة والعاشرة.

معا تسلقنا الجبال والأشجار، تعلمنا الحب وتعلمنا حروف الهجاء، خدشنا قلبينا وخدشنا ركبتينا.

وداعا يا صديقي عسير أن يموت المرء، بينما الطيور تغرد في السماء. لأن الربيع يفعم الجو الآن. الفتيات الجميلات في كل مكان. فكر فيّ وسأكون هناك ([1]).

وداعا العظيم أحمد خالد توفيق. لكنك بما نقشت على عتبات أرواحنا باقٍ أبدا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا (أوديف) أو (عوديف) إن لم تشعر بريبة ما تجاه نطق الأخير.

أحب أسمائي جميعها. يدعونني (كورفوس) باللاتينية، (كوراكوس) باليونانية، الإسبان يدعونني (ماريا) بينما يسميني الإنجليز (كراو).

أما عني، فمثلما أخبرتك - أم لم أخبرك بعد؟- أفضل لو ناديتني أوديف، أكثر أسمائي أصالة وقربا إلى نفسي وتناغما معي.

حسنا، لن أطيل عليك. جئت لأقص عليك حكاية مسلية.

هل تحب الحكايا؟!

الناس جميعا تحبها -أعتقد- حتى أن الرب ذاته يقصها باستمرار ودأب.

أعدك بأن تكون حكاياي اليوم مختلفة. ستتسلل عبر أطرافك، وتثير في جسدك رعدة.

ربما ستكون سمعتها من قبل، لكن بطريقة مغايرة.

أرى ألّا بأس بأن تسمعها اليوم من فم أوديف.

أراك ترتجف! لا تحب أن تطيل النظر إلى وجهي؟ لكن لا تنكر أن صوتي يجتذبك إلى قصتي. رخيم ويتسلل إلى أعماق روحك القلقة المتعبة.

يقولون إن التاريخ يكتبه المنتصر، لم لا نسمح بأن يكتبه المهزوم مرة؟

هل سيراودك الشك تجاه صدق حكايتي؟ لا ألومك. لا أسعى لأن تصدقني. أعلم أنني -ربما- لا أوحي بالثقة. لكن لتعلم بأن أوديف العجوز لا يحب الكذب.

ربما لا أخبرك بالحقيقة كلها، ربما أخفي عنك شطرها. ربما لا أخبرك بالحقيقة أصلا! لكن أعدك بأن أطرح أسئلة طازجة ستدفعك للسؤال وإطالة الفكر.

حسنا. دعنا من الثرثرة. لم لا نتابع الحكي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوديف

جاء المنادي يدعو:

- اِلْحَقْ الركب تنجُ!

- وإن تقادم العهد؟

- وإن.

وارتحلت.

الجموع الغفيرة تقتحم المكان. تواصل رحلة طويلة ممتدة، لذكرى لا يعتريها النسيان.

ويخترقني الصوت قادما من نقطة بعيدة، أنى تبصرها عيناي: - اِلْحَقْ الركب تنجُ!

مهتابا. تصطك ركبتاي رعدة. وجلا، مرتابا. أقارب الجموع علني ألتمس أمنا.

غير أن الأمن أبدا لم يكن بين الجموع.

غر ساذج لا تزال؟ تخشى المقابر؟ وتأمن الأحياء؟

الأمن هناك بالداخل.

أبصرت المئذنة أسطوانية الشكل.

- تراني أجده بالداخل حقا؟ ألتمس بعضا من طمأنينة في حضرته؟ أعوزني الأمن يا إمام!

تتنازعني الأفكار.

حين انقضت الصلاة ارتكنت إلى ركن شديد. ارتحلت إلى دركات الفكر. مهتابا أن أقارب المقام.

تركت من خلفي المال والأهل والولد. وحبيبة لا تبارح القلب، تملك شغافه.

أرهقني البعد، استنفدني. وطردت ذهني للذكرى.

حول رأسه تناثرت الأقاويل، وتكاثر القول.

يحكون أن رأسه هنا. يقال نقلت من عسقلان خوف الفرنج ودفنت في قبة الديلم التي يؤدي إليها باب الديلم، باب القصر الفاطمي الكبير الجنوبي. الحالمون يحكون عن أم الغلام التي فرت من كربلاء على فرس حاملة

الرأس. هناك من ينفي الأمر بالكلية. يقال نقلته الملائك صفا. يقال ويقال غير أن أي من تلك الأقوال لا يُستدل عليه. وحفظ التحقيق في الأمر وقيدت الجريمة ضد مجهول/ معلوم.

أخذتني سنة من النوم. وحين تفتحت عيناي كان المكان فارغا كطريق الحق.

ورأيته من بعيد. متجها إليّ.

- اِلْحَقْ الركب تنجُ!

- أتيتك سعيا يا إمام! وحدي!

- طريق الحق كذا، قليل سالكوه. فاعلم!

- علمني مما علمت رشدا!

- أوتصبر على ما لم تحط منه خبرا؟

- لم آوِ إلى صخرة، لم آت بحوت، لم أسلك طريق البحر، ولم ينسني الشيطان من ذكرك خبرا.

- إنك لن تستطيع معي صبرا!

- لن أعصي لك أمرا!

- وإن رأيت خلاف ما انتظرت؟ وخلاف ما تعرف؟

- وإن!

- وإن زالت الستر وانكشف لك مما لم تدركه قبلا؟

- وإن!

فانطلقا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اسمها زينب

تنصهر فتسيل ندفات عرق ندية على جسد بلون الشمع.

تقارب رهافتها، يختال الشعر، أسود كقطع الليل، مظلما، لامعا كنجمة غشيها السهاد تهدي السبيل.

يتراقص الشعر، ساترا ما استطاع إليه سبيلا من عري الظهر، يتواضع أمام جلاله، مهابته، وامتداد عمودها الفقري كخريطة لعالم جديد ملأى بالأعاجيب.

ينحسر الثوب عن آخر الساق، تتبدى كوعد وميثاق لوصل لا انتهاء له.

عينان سوداوان، متلألئتان بسحر الشرق. يظللهما كحله.

تناديان بلا صوت:

- يا باغي الخير أقبل! يا باغي الخير انهل!

و يقترب، و يقارب. شغف شغوف. يشم منها الجسد و الروح بوشم ابدي، و يجئ من بعيد بحب لا ينضب يبلغ شغاف القلب و يستقر فيه

قد شغفها حبا.

يقبضها و بين قبضتيه تواصل رحلة بلا انتهاء.

يجئ اليها كطفل اعياه الجوع و العطش.

يقاربها. تليق بالاحلام، بل اشهي من الاحلام.

ياتيها و قد اعياها الياس و الجدب و طول الطريق و عثرته.

و يشهر سيفه استعدادا للنزال. يليق بحكايات الابطال.

يستمر، حتي تضع الحرب اوزارها.

و(يزيد) في الشام، يستيقظ خافق القلب، جزع الفؤاد. يلاحق نبضات قلبه بلا وصول.

يفكر ويدبر عن ماهية الحلم، بل قل الكابوس. يتفل على اليسار بلا فائدة، هربا من قدر وشم به لا ينفك عنه. لا مفر ولو تفلت الفرات على يسارك!

- قاتلك الله يا زينب! بل قاتلني، لا قاتلك!

وينشج في البكاء!

اسمها زينب، يخفق قلبه بذكرها. يزيغ منه البصر. يغمض عينيه فيتصورها.

بعيني مها برية.

بملامح منمقة. ثغر باسم. وقد رهيف. أواه من هكذا صوت. ينتقل به إلى عالم لا قبل له به.

يضاعف خفقان قلبه، ينطق باسمها حال الصحو وحال المنام.

- قاتلك الله يا زينب. طيفك لا يغادرني. ذكرك لا يفارق لساني.

زينب ابنة إسحاق، جميلة جميلات عصرها، ودرة تاج قومها. يعلم ذلك يقينا. أدركها، ألم بها، حفظها ووعاها.

أومأ لها فتاه فأبصرها على حين غرة، غررت بقلبه والفؤاد.

واستقرت في قلبه من نظرة واحدة.

يتلمس قولها، حرفها، طريقة نطقها لاسمه، يتصوره في ذهنه ويتخيله. ثم ينزف القلب؛ إذ لا يدرك ما يطلب.

زينب ابنة إسحاق، اسمها محفور بقلبه، غير أنه منسوب لعبدالله بن سلام، والي أبيه على العراق، يذوي يزيد، ينعزل في غرفته. خف وزنه وعقله.

شغفه حبها. وبينه وبينها أمد بعيد.

وأدرك معاوية ذلك.

- ما ألمَّ بيزيد؟

- ولع بزينب يا أمير المؤمنين!

- زينب؟

- ابنة إسحاق، وزوج واليك على العراق عبدالله بن سلام.

وقلب معاوية الأمر في ذهنه، ولي عهده قد شغفته زوج عبدالله بن سلام حبا، وما عرف لعاشق صلاحا إلا بقرب. وسهر ليلته يقلب الأمر على وجهه ويجمع خيوطه. لا صلاح للأمر إلا بزينب، يستقيم أمر الفتى، ويستقر أمر العرش!

كان قد سهر يقلب الأمر على أوجهه، يدارس الحيل، ومع بزوغ الصبح كان معاوية قد أزمع أمرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلب معاوية الأمر على أوجهه، واليه على العراق رجل فخر وسلطة، ومسيره في العرب مسير سيرة وشرف، اقتنى ابنة عمه ليسير بين العرب

أن قد تزوج ابن سلام جميلة جميلات عصرها. فيعرف بها.

عرف معاوية مدخله.

واستدعاه، حتى إذا ما دخل عليه قربه، وتودد إليه قبل أن يقول بلسان أب ناصح أمين: - يا ابن العم، إن لنا ابنة نريد تزويجها، ولا أرى لها كفئا غيرك!

ونزل الأمر على ابن سلام بردا، فلم يتمهل حتى يقلبه بل سارع: - أنعم به يا أمير المؤمنين!

قالها وقد اشتعلت عيناه فرحا وبهجة. صهر أمير المؤمنين، وزوج أخت خليفة أمير المؤمنين، ومجد تليد إلى جوار ولاية العراق. ولاية أبدية لا تزول عنه، ولا تنفك فحق له!

- أنعم به يا أمير المؤمنين! وكيف لا؟!

لم يكن لزوجه زينب أن ترد في فكره ولو لبرهة. مثلما كانت أبدا.

وانتقل متسارعا قبيل أن يقلب الأمير الأمر من جديد: - فأرسل رسولا لخطبتها يا أمير المؤمنين؟

ابتسم معاوية فقد استقرت حيلته في موضعها بلا كثير جهد. الرجل لم ينتظر حتى رؤيتها!

- نعم إذن.

وكيف لا ينعم ما قدر له؟

وسير ابن سلام الرسول يطلب ابنة معاوية. ودخلوا عليها فلم تنكرهم. بل رددت ما حفظته من كلام معاوية، وتطاير الركب إلى ابن سلام يخبره ما اشترطت.

- أنعم بعبدالله بن سلام زوجا. لولا أني أخشى الضر والشقاق. فإن زال ذاك يكن.

وأدار ابن سلام الأمر في رأسه.

وإن نكح زينب من قبل لغرض أن يقال زوج جميلة جميلات العرب. فغدا يقال زوج ابنة الخليفة، وأخت الخليفة! فأنعم بالخليفة نسبا!

وغرض الأمس يزول إن لاح غرض اليوم.

- آتيك بالخبر يا أمير المؤمنين، فأنظرني.

وارتحل إلى العراق يطلب زينب وقد استقر به الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت ليلة زينب الفائتة عسيرة، تتقلب في فراشها تطلب النوم فلا تدركه. قلق لا تدري له سببا ألمَّ بها. حياتها في دار عبدالله رغدة، ينفق فلا يخشى الفقر. والي العراق وسيدها فلا يخشي أحدا.

تلتفت لزرعها. وبعض طير يحلق في فنائها. تطعمهم وتسقيهم. لا تبخل على أحد. حتى ذلك الغراب غريب الشكل تعنى به ولا تخشاه وإن لاحظت أن في نظراته ريبة وفهما لم تعهدهما من أقرانه من الطيور.

رؤيا الليلة الفائتة أرَّقتها. وحُق لها.

كانت قد صلت الفجر ثم أخذتها سنة من نوم وهي تناجي قمرا افترش السماء.

اعتادت أن تتأمله في ليالي التمام.

وإذ هي كذلك حتى غفلت، رأتها أمام ذات القمر، تنعم فيه النظر حتى استحال وجها لينا طيعا، تظلله رجولة وعزم. وهفا القلب مثلما لم يهف أبدا. خفق خفقة وكأنما يخفق مرته الأولى. وبينما هي كذلك إذ تساقط القمر إلى غرفتها.

واستيقظت زينب جزعة. حينما قصت على أمها من رؤياها خبرا –بأن قمرا له وجه رجل سقط في غرفتها- صفعتها فأدمت خدها! بلا قليل نقاش أو كثير، لم تحتج الأم إلى تقليب نظر، فالقمر معلوم لها، وقد وافاه الوصف، ارتعدت فرائصها من هكذا حلم فصرخت فيها بأن: - احفظي زوجك!

وولت مدبرة ولم تعقب، لم تشرح لها شيئا بل تركتها في لجة الفكر.

وحين تقصت زينب الخبر أُخبرت بأن تتزوجين عظيما.

وخفق قلبها من جديد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ أعوام قلائل كانت زينب زهرة برية تنبت بذرتها في أرض العراق، ما بين أب ذي مال عظيم وعم ذي شرف ونفوذ، وما بينهما يتراوح المجد، وقد ورث ابن عمها عبدالله من كليهما الطموح والفخر، وزيد له فيه فلم يبرح حتى ضم إلى حيازته العراق ولاية سائغة تحت إمرة خليفة حليم وزوجة هي جميلة جميلات العراق ابنة عم لين طيع فجمع الحسنيين، بالأمس لم تخير زينب إذ انتزعت زهرتها لتضم إلى حيازة عبدالله، أما اليوم فعبدالله كان قد خير وترك له من الوقت ليختار -أم تراه ما خير؟

ما من شك أن أي شاهد عدل سيتتبع حياة عبدالله إلا ويدرك أن مدار أمره المجد، وأن ما راد له عن خياره شيء أو أحد –حتى زينب- ولربما وبهذه الصفة لما ولاه معاوية ولاية عسيرة كالعراق، معاوية رجل ذو حلم وصبر، ولا يصلح له والٍ إلا إذا كان ذا طموح وطمع، والطموح لا يعرف أناة معاوية غير أنه يعرف عجلة عبدالله فسرعان ما ارتحل، أدرك زوجه، فطلقها.

لم تندهش زينب للأمر ولم تجزع، الأدهى أن لم تبد من الفعل ما يدل على أن تلقت الخبر أصلا!

«تتزوجين عظيما» تتردد الكلمة في ذهنها.

لم تغضب، لم تثر، لم تسأل حتى!

لربما اعتاد منها عبدالله هذا إلا أنه ولأول مرة يدركه. لم يعتد منها غضبا قط. أو حتى اعتراض. وكأنما كانت دمية بلا إرادة.

هل كان عجيبا حقا أن لم تبد ردة فعل؟ أم الأعجب أن توقع منها ابن سلام غير ذلك أصلا؟

تأمل وجهها، عيناها الثابتتان، لا تحملان هما! غضبا! أو حتى فرحا!

وشعر ابن سلام بدواخله تتشرخ!

هل كان هملا للحد ألا يحدث أثرا –أي أثر- في حياة امرأة عاش معها كل تلك السنوات؟

عاش حياته كرجل يوقن ألا يليق بالرجال الجراح. ولما كان هكذا أبت رجولته أن تجرح. لكن صوت الشرخ يتسع في داخله. شرخ أكبر من أن يدركه أو يعيه.

بربك اغضبي! ثوري! قولي شيئا! ود لو صرخ.

هل كنت هملا لئلا تبدي لأجل فراقي ولو ردة فعل؟

- راجعتك. لقد كنت أختبر حدة صبرك.

ود لو قال. غير أن هيهات!

تحجر لسانه. غص حلقه. وجوفه.

وانقبض صدره للحظة شعر خلالها بأن ما عاش لأجله من مجد قد انقضى واندثر.

- ألا قاتل الله ملك العراق إن كان ثمنه تلك الغصة. وهذا الوجع.

أدرك عبدالله الوجع مرته الأولى. وهو الذي طالما آمن أن الوجع لا يليق بغير النساء.

وتنفست زينب مرتها الأولى نفسا حرا لا يختلط بأنفاس ابن سلام.

وتبادلت نظرة صامتة مع أمها وقد أدركت كلتاهما ما لاح.

ورسخ في الأفق القول بلا راد.

تتزوجين عظيما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جسدها لدن، حلو، صاخب لذيذ.

لا يبارح فكره رغم تعاقب الزمن. تعامل معه دوما كعطية مستحقة. كوعد لا يتخلف.

ملك أبدي غير أنه انساب من بين يديه بكامل إرادته.

عانى لوثة الفقد. تقادم العهد. ود لو تراجع، لو كان قد تململ حين الفراق. لو أطبق على عجيزتها حين مضت متراقصة فما أفلتها.

تذكر واسترجع في طريقه إلى الشام وقد انقضت العدة وأتى الوقت المقرر سلفا مع ابنة معاوية، قالتها شبه موارية فلبى بلا إعمال كثير فكر. وها هو يأتيها سعيا.

- قضي الأمر يا رجل! أوتترك المجد والعراق لأجل عيني زينب؟ أواه عينا زينب!

يتسلل الحزن إلى قلبه. يختبر ما لم يعرفه قبلا. يتداعى في غيابات الحزن.

ووصل الشام حتى إذا دخل على معاوية أنكره، أهذا رجله على العراق ووالليه؟

أين التماعة العين وحمى العزم ودأب الطموح.

خسر رجله في العراق لينقذ ولي العهد.

- أتيتك بما اتفقنا عليه يا أمير المؤمنين.

- ففيم الاتفاق يا ابن سلام؟ أوهل طلبت منك شيئا؟

لم يجد في وسعه ما يجادل به. فقال باستسلام:

- أتيت بما وعدت. فهل لي أن أبعث الرسول إلى ابنة أمير المؤمنين نستطلع رأيها.

لربما في وقت آخر لكان عبدالله قد ثار. غضب، ولربما لكان قد طلب الثأر.

غير أنه ولدهشته هو نفسه تلقى الأمر كما يليق برجل اعتاد الهزيمة.

وكأنما أدرك أن يوم أدبرت زينب عنه أدبرت الدنيا.

كانت كلمات ابنة معاوية حاسمة قاتلة، غير أنه تلقاها برحابة صدر وسعة: - إني أخشى رجلا طلق زوجة، جميلة جميلات عصرها، وابنة عمه مع ذلك. فإني أخشاه على نفسي.

وسار عبدالله بن سلام مطرقا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملامح الرجل الذي تشكل على وجه القمر لم تغب عنها، تتأمل القمر في ليالي التمام، تطلب الذكرى فلا تدركه.

تحاول تخيله، تقبض عليه في ذهنها للحظات، سرعان ما يتسلل.

تعد الليالي تطلب ليلة تمام القمر، تطلب أن يزورها من جديد.

لا تنام إلا لأن يأتيها. وعله يأتي.

- تتزوجين عظيما.

كذا قيل لها، ولم تعرف عن ابن سلام عظمة قط، عالمه صاخب، طموحه لا يسعه الفرات، غير أن لم تك يوما جزءا من عالمه ولم تسع لذلك. لا تكتمل عظمة الرجل إلا بامرأة يكتمل بها.

ولم تعرف في عالم ابن سلام إلا تيها.

فقط مستقر لشهوته، وآية من آيات طموحه ومجده. ومقتن نادر سرعان ما تركه خلفه.

كانت دوما خلف حائط يفصلها عن كل هذا الصخب، ترقبه من طرف خفي، لكن حلمها الأخير هذا ورغم هدوئه غير أنه زلزل أركان عالمها.

عاد ابن سلام يطلب الرجعة، وتململ أبوها.

- لا بأس أي بنية! لا بأس من جبر ابن العم.

حينها انفلتت من لسانها قوية، راسخة، لأول مرة تنطقها بهذا الوضوح: - لا.

قوية مثلما لم تك أبدا.

وكأنما كان ينقصها تحديد الوجهة.

قالت لا.

ورددت دواخلها:

- ستتزوجين عظيما.

ولم تعرف عن ابن سلام عظمة يوما!

(قد استقام الأمر يا يزيد، طلق ابن سلام زوجه، فأدرك!) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كلا! كلا! لا يعدو الأمر قصة حب؟ هذا خلاف ما انتظرت! أطلب إجابات وافية!

كانت نظرات الغراب الصغير حائرة تتلمس الطريق.

يسائل أباه. يطلب من أمره خبرا.

- وماذا تطلب؟

- أن أعرف حقيقة الخبر ومبتدأ الأمر. لم تطاردنا اللعنات حيث حللنا؟ وما حقيقة الشؤم واللعنة التي تصحبنا؟

يتأمل سواد ريشه، ينزف غرابته.

اعتاد أوديف دوما أن ذكاءه أكثر –بكثير- مما تستدعي حياته وتتطلب للعيش، ونتاج ذلك اعتاد الضجر.

واعتاد نظرات الرعب والتطير تبصره.

- هل نحن السبب في كل هذا القدر من الدمار؟

يتساءل وهو يبصر الموجودات من حوله.

- ألقت الملائك بتلك التهمة على البشر من قبل.

قال أبوه.

- الملائك؟

- مخلوقات من نور لا تعصي الرب أبدا!

- وبما أجاب الرب؟

- قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

- وهل الرب يعلم حقا؟!

تململ أوديف قبل أن يبصر ابنه بنظرة ماكرة.

- يحكون عنا كنذير شؤم؛ إذ إن لكل أنثى غراب بيضتين في المرة، يفقشان ذكرا وأنثى يصحبان بعضهما بعضا ما بقيا، فإن نتج عن البيض ذكران لازمتهما الوحدة ما بقيا.

- غرابان فآل حسن، غراب وحيد نذير شؤم؟

- ربما.

أجاب أوديف بمكر.

- تحكي الكتب القديمة عن أن النبي نوح أراد أن يتيقن أن غيض الماء، فأرسل غرابا يستطلع، فلم يعد الغراب.

- لم يعد؟!

- كان الماء قد غيض وبانت اليابسة، حط عليها. لقد منحه ذكاؤه ميزة لم تكن للحمامة التي أطلقها النبي نوح بعده فعادت من جديد مذعورة تحمل غصن زيتون.

- كشعار للسلام! ولظهور الأرض!

- بل لانعدام الحيلة، دوما ما حاولوا تشويهنا لمجرد أن ريشنا أسود، ذكاؤنا وصمنا بالشؤم بينما وصمت الحمامة بالخير لأنها مذعورة ساذجة! بل بلغ بهم الأمر أن أشاعوا أن النبي نوح قد طرد الغراب من الفلك لأنه مارس الجنس.

أطرق الغراب الابن بنظرة متسائلة.

- هل الرب يعلم حقا؟!

- ولأنه الرب، كان جديرا به أن يعلم! كذا افترض به طوال الوقت.

ولأنه الرب. فقد حرص دوما على أن يتحلى بالمكارم والمنح.

اصطنع الرجل على عينه على ما فيه من خلل يعلمه.

ومنحه –وبطيب نفس– غرفة جميلة مزدانة بكل مباهج الحياة. حديقة غناء. نهر جارٍ. ظلال وارفة.

يقلب الغراب الصغير رأسه حائرا بين الدماء المتناثرة هنا وهناك.

- لم تكن هنا. يومها كانت الحياة رائعة بلا كل هذا القدر من الدم.

ولأنه الرب فقد استشعر في حياة الرجل بعض السأم. فأوجد له زوجة حسناء اختارها على عينيه وفق أفضل معايير الجمال لديه.

لأنه الرب فهو يدرك ذلك جيدا. ويفهم جيدا في معايير الحسناوات. أوليس بخالقهن؟!

وحين تكشفت الزوجة، ورأى في عينيه اللهفة. أوجد حينها الحب.

أدركه لأنه حكيم، كما يجدر به أن يعرف دائما.

- الحب من جديد؟

تساءل الغراب الصغير تساؤلا ذهب أدراج الرياح.

ولقد دأب طوال الوقت على مراقبتهما من طرف خفي. فقد اعتاد دوما ألا يغيب عنه شيء من تفاصيل العلاقة بينهما. مع ما يحمله ذلك من حرج.

ولأنه الآمر هنا فلقد كان لزاما أن يصدر الأوامر لهما.

ولقد أصدر أمره بألا يمارسا الجنس إلا في الخفاء، وفي الظلام. وبأكثر الطرق تحفظا واحتراما -قدر ما أمكن-

(فكر الغراب الابن في قصة طرد الغراب الجد من الفلك، وأطال الفكر).

ولأنه الرب فلقد كان لزاما أن يحدد حماه، ولقد كان أمره ألا يقرب ثمرتيها أبدا. مهما أبدتا من بهاء وإغراء وحسن.

إنما وطر يقضياه وانتهى الأمر!

ولما كان المخلوق الجديد مستثارا أمام الثمرتين فلقد التقطهما على حين غرة من جنون ألمَّ به.

وسُمع في المكان أن أوامر الرب قد ضرب بها عرض الحائط.

وأضاء النور وتكشفت الموجودات وأعلن الرب عوار هذا المخلوق القاصر.

وتجاوزه حد المعقول.

كان المخلوق منكمشا على نفسه مظهرا ندما غير حقيقي تماما. إذ إنه بغير اقتناع حقيقي.

- كنت غائبا عن الوعي! كان الأمر أقوى مني بالكلية.

تبدت له الثمرة على حين غرة فانتهلها على غير عمد!

ولما كان قد ذاق الثمرة بغير إرادة متحليا بالخرق فلقد مارسا الحب لأول مرة مدفوعين بالعاطفة لا الشهوة فقط. ومما يعد تهديدا للمستقبل كله، اُكتشف الحب!

وبلا كثير مداولات صدر الحكم بالطرد. والشقاء الأبدي.

شعر المخلوق في نفسه بالغصة. هذا شديد القسوة، لقد جيء به إلى هنا ضعيفا متعهدا بالرعاية أبدا. وها هو يترك وقد طُلب منه أن يتلمس طريقه منفردا.

ولقد سمح له بعد كثير جهد باصطحاب الثمرة في رحلته الطويلة. بل رحلتيهما، فولدا! كاثنين هذه المرة! (فآل جيد إذا؟!) كانا مخيرين لمرة أولى فيما يبدو. لكن الرب كان يرقبهما في كل خطوة.

ولما تبادلا أفعالهما تلك بلا رادع من سابق العقوبة فقد ولد من نسلهم ولد (ا) وفتاة (ب) ثم ولد (ج) وفتاة (د).

ولما كان (ا) قد مال إلى (ب) فقد أدرك الرب أن ما سيحدث بينهما من ممارسة سيكون مصحوبا بعاطفة شبقة مما يفقد الوعي. وينذر بحادثة عصيان جديدة. فأصدر أمره أن يزف (ا) إلى (د) بينما يحظى (ج) بـ (ب)! هكذا بلا تبرير، وكما اعتاد دوما لم يحتج إلى تبرير.

وأصدر المخلوق الأول أوامره بالطاعة! وألا يظهر أحد الجزع!

غير أن (ا) كان ثائرا، غاضبا. ويومها عرفت الثورة مرتها الأولى. على أثر نوبة حب!

كانت (ب) فائقة الجمال مخلوقة على غير مثال سابق. متفردة. نضجت ثمرتاها قبل الأوان وحان منهما القطاف. وأبى (ا) إلا أن يكون قاطفهما.

كان (ج) هادئا مطيعا بما يوافق أوامر الرب! ممتثلا، خانعا، كما أريد به!

ولما كان الأمر كذلك فقد اقترح (ا) أن يدفع ثمن حبيبته. وبأن يقدم كل منهم أعطيته وتضحيته!

واتفقا على موضع ما بعد أيام.

انطلق (ج) إلى ماشيته فانتقى منها كبشا عظيما. في عينيه بعض ذكاء. وأحسن رعايته وتعهده. إلى يوم الاتفاق.

يومها استيقظ (ا) بكل هدوء لينزع زهرة جميلة من جوار موضع اضجاعه.

اقتربا من الجبل وقرب كل منهما أعطيته وانتظرا.

في برهة من الزمن اقتربت نار من السماء فتلقفت كبش (ج) ومضت بكل حياد متجاهلة زهرة (ا) فائقة الحسن. حتى ذبلت، لتلقى مصير كل جميل!

كان منطقيا أن يختار الرب الكبش! لقد أدرك (ج) إرادة الرب لما يُذبح. يُضحى به. ويسيل منه الدم. بلون الأرجوان. يحب الرب لون الأرجوان فيما يبدو ويحب الأضحية!

انتفض (ا) مبصرا أخاه صادحا:

- لَأَقْتُلَنَّكَ!

- إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ!

كانت عينا الغراب الصغير حائرتين تتابعان ما يقصه أبوه.

في موضع قريب وعلى الرغم من علم الرب هوى (ا) على رأس أخيه (ج) بحجر فقتله.

سال الدم أحمر قانيا مرته الأولى على الأرض. التي استثارت لمطعمه.

طلبه بعضُها مرارا. وأراد الرب ربطي بهذا الدم فاستدعاني فأتيت (ا) حائرا لا أدري ما أفعل بجثمان أخيه.

ولأنه الرب فقد أصدر أمره بقبض أخ لي وأمرني بمواراته التراب.

سال الدمع من عيني الغراب الصغير وهو يرقب التأثر في محيا أبيه أوديف.

تعلم يومها البشر كيف يوارون أخطاءهم التراب. يدفنونها بحرص وتقية، ثم يمضون متمثلين البراءة كأنما ما فعلوا شيئا.

وذاقت الأرض مذاق الجثث فأدمنت الموت والدم.

من يومها وحتى الآن وكما ترى. قالها أوديف مشيرا للمواضع الصاخبة من حوله!

من يومها والبشر يسيلون الدماء. والأرض لا تشبع أبدا.

ومن يومها ونتواجد نحن في كل تلك البقاع المدنسة بالدم.

- هلا مضيت معي لنراقبها؟

- نعم. غير أن لمَ فضل الإله الكبش على الزهرة؟ ألا يحب الرب الزهور؟!

- لأنه الرب. فقد امتلك لكل فعل يفعله حكمة. وسأريك الآن بعضا من أمره وحكمته.

قالها ثم انطلقا من جديد نحو أرض لا تشبع أبدا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بابل – العراق – ٢٠٠٠ ق.م:

عندما خطا بقدميه الدقيقتين أرض المعبد تبخر كل ما جال بعقله من هواجس المساء.

حين رأى البهو الممتد على مرمى البصر، الأرضية الصلدة التي تبث الخدر والبرودة إلى قدميه، النيران المشتعلة هنا وهناك تؤجج المكان بجو مهيب، وتبث الحياة لتلك التماثيل متقنة الصنع المتراصة على جانبي الممر.

حين رأى ذلك عادت إلى ذهنه تلك الذكرى البعيدة، أصوات الطرق التي اعتاد سماعها حين يصر أبوه على اصطحابه إلى ورشته، كان يصر في المرات الأولى حين كان جل ما يراه (إبراهيم/ أقراهام) صخورا متراصة.

بعيد أن يتطور العمل وتتحول الصخور إلى تماثيل كان إبراهيم هو من يذهب مختارا، محملا بنشوة تتابع تطور الحجر واستنطاقه، يتأمل جسد والده الفارع، عضلاته المفتولة، ويديه اللتين تهويان بآلة الطرق الدقيقة فيستحيل الحجر تمثالا ينبض بالحياة.

- اسجد لإلهك يا بني.

ينتزعه صوت أبيه من فكره وهو يعيد تأمل ما استحال إليه التمثال، يجتذبه بعنف من شعوره بالامتنان للقدر؛ إذ وهبه أبا يحيل الصخر إبداعا كالذي يراه.

- إلهي؟!

يتساءل إبراهيم ببراءة تناسب عمره، يرى جسد أبيه عظيم التكوين يعكف على الحجر ساجدا، يمرغ وجهه في التراب، يصدر تبتلات ورجاءات، يشمئز إبراهيم، يقلب وجهه إلى جهة الباب، ومن ثم يفر إلى الخارج.

بالخارج حيث السماوات المفتوحة، حيث يستنشق هواء نقيا لم يختلط بعد بأنفاس أبيه التي تمرغت في التراب ابتغاء رضاء تمثال قد من صخر. قد صنعته يداه!

بالخارج يتأمل السماء، ويتذكر أياما خلت.

عندما يجن الليل، تهدأ الأصوات، تتحرر ذرات الهواء من أنفاس البشر، حينها، وحينها فقط كان إبراهيم يهرع إلى ساحة منزله الخلفية.

هنا حيث لا نيران معبد، لا وجوه سادة تتراقص على ملامحها وهج النار، لا طرقات أبيه التي استحالت استفهاما، تساؤلا، غصة وألما.

في تلك الأيام القديمة كانت مرته الأولى التي يوجه وجهه شطر السماء.

انتابته رهبة خفية، وشعر بقرب لم يشعر به يوما.

ولاح الكوكب، شيء عظيم، يضيء عتمة الليل، يؤنس وحدته، أفيعجز عن أن يضيء قلبه الحائر؟

ليلتها كانت السماء بكرا، تتماوج بجمال أولي ساحر، لم تتلوث بعد بمعارف البشر وفضولهم، يتوسطها الكوكب مختالا.

انبهر إبراهيم لمرآه، قارنه بتماثيل المعبد الكبير المحملة بالثقل، فهتف من أعماقه بأن (هذا ربي)، هذا بعيد حد أن لم تصنعه يد!

يتداعى إلى عقله صوت أبيه القادم من زمن بعيد:

- اسجد لإلهك.

يتساءل حائرا، هل هذا المتلألئ في الأفق يستحق التقديس؟

لم لا يزال يسأل؟ لم يطرقه الشك؟ حتام يظل تائها تتخبطه التساؤلات، لا يأتيه اليقين.

لم يتركه الكوكب يسأل نفسه طويلا حتى أفل، فقال لا أحب الآفلين!

الترك أيضا يكون على عجالة؟ أولا تملك بعضا من إصرار قومك على معبودهم، الأدنى من ذاك الكوكب وأقل؟ بل يريد ربا باقيا أبدا بالجوار!

عندما يغيب القمر عن السماء، تتعاقب عليها النجوم والكواكب، تبث بعضا من قبس، من ضوء.

حين كان إبراهيم يتأمل كل ذلك ما كان له أن يعلم بأن كل تلك الأضواء البازغة من فوقه قد مر عليها زمن بعيد، بعيد جدا، فلربما كان ذاك النجم المتعالي في جو السماء قد انتهى منذ أمد، وما تلك الأضواء التي يرسلها إلا رسالته الأخيرة إلى الكون، بعض من أثر يقول بأن قد كنت هنا يوما، لربما لو علم إبراهيم ذلك لتساءل عن الأثر الذي يتركه، هل سيكون بإمكانه ترك رسالة أخيرة؟!

حين تداعت تلك الأسئلة إلى عقله كان القمر قد قرر الظهور أخيرا.

تباعدت الكواكب، النجوم، وكل شيء ترحابا بذلك المتفرد هناك، ذاك الذي ما إن سطع حتى ردد إبراهيم بعزم إن هذا ربي.

هذا المتربع وحده على عرش السماء قد استحق العبادة خالصا.

الآن والآن فقط يدرك أن انبهاره بالكوكب كان عبثا لا يليق.

ها هو إلهه يعلن عن نفسه مثلما يليق به، تتبعه إبراهيم ببصره. انتشى بروعة الاكتشاف، غير أنه أفل.

يتذكر إبراهيم تلك الأيام البعيدة، كان حائرا يطرقه السؤال، اليوم أيضا تنتابه بعض الأسئلة، غير أن قد خفت حيرته، يجيء سؤاله كسؤال مطمئن بعد طول الرحلة. يوم بزغت الشمس شعر إبراهيم أن قد وصل أخيرا، تردد للحظات غير أن روعة ضوئها وأثر حرارتها على جلده كان أقوى من ألا يردد هذا ربي، هذا أكبر!

ظل يتابعها طوال النهار، يتتبع مدارها، تباييناتها، وأضواءها الذهبية الجميلة، ويردد بغية الثبات هذا ربي، هذا أكبر.

كانت حقا أكبر من كوكب وقمر، لكنها لم تكن ربه أبدا، أدرك هذا إذ أفلت.

عندما خطا بقدميه الدقيقتين أرض المعبد تذكر إبراهيم كل شيء!

لم يطأ المعبد منذ زمن طويل، أصر أبوه أن يصحبه إلى هناك مرات غير أن قد رضخ في الأخير لإصرار ذلك الفتى الصغير.

حينها كان ذلك الممر أكثر اتساعا، تلك التماثيل أكثر غموضا، حتى ظلالها كانت أضخم وأكثر إثارة للرهبة في نفسه.

كان أصغر فبدت أمامه بلا انتهاء، أما اليوم فهي أهون مما كانت عليه في هواجس الليلة الفائتة.

أدرك كم هي هينة حين استعاد ذكرى مطرقة أبيه وهي تدق الحجر، حركات يديه المنتظمة، جبهته ووجهه الممرغين في التراب، أدرك كل ذلك حين رفع معوله. وهوى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الأمر عبثيا بما لا يُتصور، السادة المنتشون بالاحتفال في ساحة المدينة الكبيرة يدلفون إلى المعبد ليقدموا قرابينهم. وقد كان ما رأوه صادما، أكبر مما تستوعبه عقولهم.

ها هي آلهتهم التي ظلوا عليها عاكفين سني العمر تستحيل ركاما، معول قاس طرق اعتقادات السنوات الفائتة، كرامتهم المبعثرة على الأرض تذروها الرياح.

وجن جنونهم، هاجوا وماجوا.

هناك وفي آخر الممر كان التمثال الأكبر يقبع وحيدا، بلا خدش. يسبغهم بنظراته الميتة الحجرية، استحالت في أعينهم نظرة هازئة ووضيعة.

أوما استطاع أن يدفع بعض الضر؟ أن ينزل لعنته؟

وعلى عنقه الطويل استقر معول كانت له الكلمة العليا هذا المساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما كان لإبراهيم أن يتردد أو يتراجع، تلك القوة التي استمدتها ذراعه القابضة على المعول ما كان لها أن تلين، ومع صوت الارتطام الأول انتهى كل شيء.

استحالت تلك التماثيل إلى حقيقتها الأولية، حجرا أصم. يقترب إبراهيم من تمثال جديد، يقرب القربان إليه وينطق هازئا: - ألا تأكلون؟!

ثم يهوي من جديد، ينتشي بروعة اليقين في لحظة فارقة، ويداه قد انفصلتا عن الوجود ذاته واستغرقت في عبادة شديدة الخصوصية.

هناك وفي آخر الممر كان التمثال الأكبر يطل على المكان، ملك عليل لا يملك من أمره شيئا، يدور إبراهيم من حوله، يقلب شفتيه متصنعا الإشفاق. ثم يعلق معوله على رقبته بحزم، أصوات الاحتفالات البعيدة ما كان لها أن تصل إلى أذنيه في العادي، غير أنه خالها أصوات صراخ وهلع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين لاحت النيران أمام ناظريه طرقه السؤال، لو عاد هل كان ليختار ذات الاختيار؟

كانت نيرانا عظيمة فعلا، أعظم نيران شهدتها بابل، جُمع لها الحطابون، وأعددت كخير ما يكون الإعداد، لأجل فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. كذا أطلقوا عليه!

كذا قالوا في البدء، ما إن بدءوا في الإدراك حتى أدركوا أنه إبراهيم، ذلك الإصرار في عينيه، العزم في قلبه الناطق على قسمات وجهه.

ما كان له أن يكون سوى إبراهيم!

سموه فتًى، وتأملوا ما فعل فابتلعوا غصة. ومن ثم صدر الأمر حاسما بجمع الحطب لتحريقه حيا.

يقولون بأن تلك النار التي صنعت من أعظم نيران الدنيا، يتحدثون عن طيور تمر فوقها فتساقط فيها، يتحدثون عن ابتعاد الناس عنها بالأمتار الطويلة. ما كان لإبراهيم أن يعتني بكل هذا، وما اهتم بالبت في صحته أو كذبه. ما اهتم به هو تساؤل طرقه.

لو عاد هل كان ليختار ذات الاختيار؟

حياته كلها تتمثل في اختيار مماثل. اختار كوكبا ثم قمرا فشمسا. وفي الأخير ربا، اختار أن يحطم تماثيل قومه، أن يترك الأخير، أن يكلله بالعار بتدلي معوله من رقبته وأن يواجه النار.

أن يجيب على تساؤلهم الساذج بسخرية مقيتة.

- أنت فعلت هذا بآلهتهم يا إبراهيم؟

- بل فعله كبيرهم.

أم تراه حاول خداعهم حقا؟

والآن، الآن تحديدا اختار الثبات، أن يرقب اندفاعهم لأجل نصرة آلهتهم وينتشي بحرية نبعت في داخله، كان يوقن بالنصرة، وبأن الذي أرشده سيهديه. لا يدرك كيف ومتى، لكنه كان قد امتلك اليقين، لم يعتن كثيرا بتلك القيود التي تكبله، قيوده التي تحرر منها كانت أعظم، لم يبال باندفاع جسده عبر منجنيق ضخم، باندفاع دفقات الهواء عبر جسده. بالنيران التي تلوح بالأفق. فلقد كان ما نبت في أعماقه يشغله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دم. موت. الدم يغرق المكان، الرؤيا تثقله، يتفجر كينبوع ماء.

الدم يملأ الوادي، نصل سكين حاد يجتز الرقاب. تاريخ من دم.

- أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟!

دم مسفوك، رعب يظلل الأرجاء.

لا دافع، لا مرد، لا نصير من أمر الله إلا من رحم.

ويستيقظ مرتعبا وقد أثقله الأمر.

- ما الخطب؟

تسأله زوجه بحنو ما الخطب؟ لا يدري! ما أمر هذا الولد، رزق به بعد عناء. وبعدها جاءه الأمر.

اذهب بابنك وزوجك إلى واد غير ذي زرع ثم امضِ ولا تلتفت!

رب!

ود لو اعترض، لو تساءل، أدبه الرب قبلا مرات ومرات. سمعنا وأطعنا.

- رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ

يَشْكُرُونَ!

- رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعبد الأَصْنَامَ.

يرقب ابنه من طرف خفي. يغالب دمعه. استطال به العمر. خطه الشيب. رزق بالظهر. ومن بعد؟

- اذهب بابنك وزوجك إلى واد غير ذي زرع ثم امضِ ولا تلتفت!

يمضي تاركا هاجر وابنها هناك. في مكة حيث لا ماء هناك ولا زرع ولا بشر، ويمضي. ولا يلتفت.

وينفد الماء والطعام. ويبكي الرضيع مراقبا السماء. والأم كذا بلا حول ولا قوة.

بكاء ابنها يشل الأطراف. وتدور في الوادي تبحث عن ماء.

- أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟!

يمضي. لا يلتفت.

- آلله الذي أمرك بهذا؟!

- نعم.

- إذن لا يضيعنا!

تسعى بين جبلين يحدان المكان. بين صفا ومروة. وداخلها يردد لا يضيعنا.

تسعى سعيا واثنين حتى سبعة. تعبت. لا تجد مبررا للسعي! لربما سعت حتى السبعين. ما أقسى أن يجد الإنسان نفسه في موضع لا يجد فيه ما يفعله ولا يهتدي. لربما دُفع حينها إلى الجنون. أو لربما السعي بين جبلين. غافلا عن أجيال متلاحقة تأتي بعده ولربما تسعى مثلما فعل! غير أن ربما لا تحدوهم الرغبة في فعل شيء، أي شيء!

ترفع بصرها للسماء، تتساءل. أفلا يضيعنا؟

وهناك يركض الرضيع برجله من الأرض مستقرا. مغتسلا باردا وشرابا.

وتدفق الماء ليعم الأرجاء. وتختلط دموعها بالماء.

- إذن لا يضيعنا!

وقال الملاك «لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن اللَّه لا يضيع أهله».

«فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً».

«وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ».

مضى زمن على هذا الأمر. نجى الله ابنك حينها، فلم لا ينجيه اليوم؟

أجب رؤيتك وامضِ.

- إني مرتحل.

يتذكر ما طلب قديما.

إذ راودته الشكوك.

- رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ؟

- أَوَلَمْ تُؤْمِن؟!

- بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي!

ما شككت ربي وما كفرت.

أخرجتني من نيران تصلي الجسد. وفجرت لابني البئر من تحت قدميه.

غير أنما أريد أن يطمئن القلب. فـ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ!

أويحيي له الرب ابنه بعد القتل؟

يفكر. ثم يعود للتذكر.

جاءه الأمر.

بعد ليال من الفكر وانشغال العقل بكيف يحيي الموتى.

- فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ!

فخذ طاووسا، وحماما، وغرابا، وديكا!

فأعمل فيهن سكينك.

أويفعل مثلها في بنيه؟

أويكتفي الرب بالذبح؟ أما تراه يأمره بما أمر يومئذ!

- فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا!

فقطع أجسادهم ومزقهم إربا! ثم وزع أجزاءهم على الجبال من حوله.

ينفذ الأمر وقلبه ينبض.

- كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ؟

ووقف إبراهيم بين الجبال يقلب بصره وينفذ الأمر.

- ثُمَّ ادْعُهُنَّ!

ونادى إبراهيم في الآفاق:

- تعالين بإذن الله!

وأمام ناظريه تجمعت أجزاء الطير وبعثت فيهن الحياة.

وتمايز بعضها إلى بعض.

وعلى امتداد بصره أقبل إليه ما ذبح.

طاووسا، وحماما، وغرابا، وديكا!

يومها أيقن إبراهيم. أولا يجدر به أن يوقن اليوم؟

و مضى إبراهيم حتى جاء ولده. وسعيا سعي هاجر من قبل. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ: - يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ؟

- إذن لا يضيعنا!

تتردد كلمات هاجر عبر الأزمان والآباد. لن يضيعنا!

- يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.

ترى كم حُكي عن ابن امتثل للذبح من قبل أو من بعد؟

امتثل بلا كثير تساؤل عن كيف يسلم رقبته لحد السكين ومن أجل ماذا؟ من أجل حلم؟ ترى كم من بشر أفنى ذاته لأجل حلم؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ؟

- يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.

واستل سكينه ومضى. فأسلما وتله للجبين.

سكينه في يده. وجبين وحيده صوب الأرض. والأمر لا يحيد. اذبح ابنك. وبوعد بينه وبين لقيا عينه.

بينما ذرفت عينا إبراهيم دمعا

- أما من مخرج؟ أما من منجى؟

أتى أمر الله ولا حائل دونه. والابن صابر محتسب. ليته تململ. ليته رفض! لربما استجاب حينها الأب لنوازع أبوته! لبشريته لا لنبوته ورؤياه!

ويرفع معصمه بالسكين وينزل بها على عنق وحيده بلا أمل بمنجى.

ويجيء الصوت من أفق بعيد!

- أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ! قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا؟! إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلَاءُ المُبِينُ.

وتذرف دموعهما مدرارا. فقد جاءت البشرى اليوم. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

«فلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ».

«ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هأَنَذَا» فَقَالَ: «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي». فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ.

ولكن بطريقة أخرى، فبذبحه –إن كان قد فعل- كان سيسلمه إلى مصير هو منطلق إليه، أوليس مصير البشر ومآلاهم إلى الموت؟! أوأجمل من موت يحمل القداسة؟

غير أنه وبنجاة ابنه لساعات قلائل –وأعمار البشر في عمومها ساعات- قد أسال دم الكثير من الماشية من وقتها إلى اليوم! دما سائلا أرجواني اللون. قربا وزلفى إلى الرب مثلما يشتهي ويطلب الأضحية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهى الأمر بغتة!

تأمل الغراب الصغير الأمر.

- أوليس هذا الكبش؟!

- نعم.

كان كبش القربان القديم. من الأرض جاء وإليها يعود. كذا يأخذ الرب منهم ليعطيهم؟

- إذا فالرب يتدخل في اللحظات الأخيرة لينقذ رؤوس البشر.

- ليس هكذا بالضبط، أعني أنه ربما قطعت بعض الرؤوس على عيني الرب ومشاهدته. ولكن في مكان آخر. قد يتدخل الرب لنجاة إنسان، بينما يترك آلافا غيره يعانون الموت أو الفقر أو المرض. ولربما يترك بعضهم يقتاتون الحزن ويقتاتهم الأسى.

- لكن هذا مريع!

- ولأنه الرب، كان جديرا به أن يعلم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الرؤيا مختلفة هذه المرة، (يبدو أن إبراهيم كان رجلا كثير الأحلام)، لا دماء على الأقل.

أمر إبراهيم صراحة ببناء البيت وقد حدد له موضعا.

كثير هو ما قد قيل في هذا البيت وعنه. قيل بنته الملائكة. قيل بل بناه آدم، أغلب الناس اجتمعوا أن أتى عليه الطوفان فيما أتى.

- وما حقيقة الأمر؟

يتساءل الغراب الصغير وقد حار جوابا. فأطرق الغراب الأب أوديف بمكر.

- انظر! كيف يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل؟

- ابن بار مطيع!

لربما أبقاه الرب ليبني بيته! يأخذ منهم ويعطيهم، يعطيهم لينزعهم!

يقف إبراهيم على حجر، فيرتفع البناء بما يحمله له ابنه، حتى إذا ما علا ارتفع إبراهيم على حجر فتركت أقدامه أثره عليه. مثلما ترك ما صنعت يداه أثره على كل المكان.

- سيصير بناء عظيما يا بني. سرعان ما يأتيه الناس من كل صوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أعوام طويلة:

تحققت البشرى! مكة اليوم واد عظيم، يأتيه الحجيج من كل فج. وعبدالمطلب بن هاشم يطرق شوارعها لبعض أمره. حتى إذا ما أدركه التعب آوى إلى ظل ظليل يقيه الحر والشمس ويطلب الراحة.

ما إن لامست رأسه الأرض حتى أخذته سنة من النوم. تماهت الموجودات من حوله فأتاه آتٍ.

- احفر طيبة!

الصوت يخترقه. يقلب وجهه في الأفق يطلب أن يبين له. يأتيه الصوت من بعيد. من زمن قديم. من العدم تقريبا. قبل أن يجيء شيء أو أحد.

يتساءل حائرا. يلتمس الطريق:

- وما طيبة؟!

فذهب!

أدركته الدهشة وعلاه العجب، وطرقه السؤال ما بقي من يومه.

- ما طيبة؟!

يقلب بصره في السماء. يلتمس نداء جديدا. فلا يسمع شيئا.

كان مشغولا يومه التالي، يمضي لشأنه حتى إذا أدركه التعب تذكر ما حدث له يوم أمس. أدرك ذات الموضع. وطلب النوم على ذات الهيئة.

كان مشغولا بالفكر. ولولا تعبه لما نام. غير أنه استسلم أخيرا. وما انتبه إلا على صوت يأتيه من جديد: - احفر برة!

- فما برة؟!

سارع بالسؤال هذه المرة. ولا جواب.

ليته يجيب. ليته يرحم حيرته، تقلب فكره.

- فما برة؟!

يكرر السؤال عله ما سمع.

حتى ذهب.

ثقل عليه الأمر. لا يبين. يومه التالي كان عقله حائرا. متربصا. يتلمس الموجودات بعقله، وبصره، وكل جوانحه. يطلب تفسيرا لهكذا أمر.

لم يهدأ له بال حتى أتى الموضع قبل موعد راحته. يقلب بصره في السماء.

يتساءل:

- ما طيبة؟ وما برة؟!

لم يزل يفكر حتى ذهب في نوم عميق غلبه. والصوت يطرقه:

- احفر المضنونة.

- فما المضنونة؟!

يتساءل مسرعا، أجبني بربك.

يهم أن يجري. ود لو لحق به. تلفح شمس الظهيرة عينه.

ذاهلا عن كل شيء.

يطلب النوم من جديد فلا يدركه.

- ترى أي أمر أوكل إليك يا عبدالمطلب؟

يطرقه شعور قديم بأن سيكون ذا شأن.

تراه أي شأن هذا وأي أمر؟ يتساءل.

يغلبه النوم من جديد. يأتيه المنادي.

ينادي من مكان قريب بصوت عميق. قادم من اللاشيء:

- احفر زمزم.

- فما زمزم؟

- لا تنزف أبدا ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل.

فلما استبان له الموضع، وعرف أنه قد صدق. غدا بمعوله معه ابنه الحارث بن عبدالمطلب، وليس له يومئذ ولد غيره، فإذا هي بين الوثنيين إساف ونائلة حيث كانت قريش تنحر.

وجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر فقام إليه الملأ من قريش يمنعونه.

- والله لا نتركك تحفر عند وثنينا ننحر عندهما.

وتمثلت له رؤيته.

- احفر زمزم إنك إن حفرتها لن تندم، وهي تراث من أبيك الأعظم لا تنزف أبدا ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم مثل نعام جافل لم يقسم، وينذر فيها نادر بمنعم تكون ميراثا وعقدا محكم، ليست لبعض ما قد تعلم، وهي بين الفرث والدم.

يسترجعها في عقله. يدافع القوم ويدفعونه حتى تكاثرت عليه قريش عددا.

- والله لا تحفر. فمن يمنعك؟

يقلب بصره في السماء ويغلي غيظا. ما له سوى الحارث لا يقوى الآن أن يذود عنه.

- أقسم بالله لإن رزقني من الأولاد عشرة حتى يمنعوني إلا ذبحت منهم واحدا.

وانصرف يومها وقد أزمع أمرا.

فخطط وقدر. فإذا ما جاء الغد حتى جاء بالحارث عسى يمنعه عن القوم ويمنع القوم عنه. فدفع من ظهر منهم وعبدالمطلب يحفر لا يلوي على أحد. حتى إذا ما أدرك الطمي صاح وكبر. وتنادى الملأ من قريش قد أدرك أمرا.

وعلا الصوت:

- إرث آباءنا والله لا نتركك حتى ننازعك فيها.

- بل اختصني الله بها. فاحتكموا إلى أي شئتم.

- كاهنة بني سعد بن هزيم؟!

- نعم إذن.

فارتحل القوم من قريش ومعهم من بني أمية نفر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وخرج عبدالمطلب ومعه القوم يطلبون الكاهنة.

حتى إذا ما بلغوا فلاة نفد ماؤه. فاستسقوا من معهم فأبوا: - إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم.

فلما أدركهم اليأس حفر كل واحد منهم قبرا حتى إذا مات دفنوه فيه.

وبينما هم كذلك إذ نادى عبدالمطلب:

- ألقينا بأيدينا هكذا للموت، لا نضرب في الأرض، لا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى أن يرزقنا ماء ببعض البلاد. فارتحلوا.

فما إن تحرك الرحل حتى ضرب في الأرض فانفجر منها ماء.

- إذن لا يضيعنا!

فكبر عبدالمطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستسقوا حتى ملؤوا أسقيتهم. ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال، فقال: - هلموا إلى الماء فقد سقانا الله.

فجاؤوا فشربوا واستقوا كلهم.

ثم قالوا:

- قد والله قضى لك علينا والله ما نخاصمك في زمزم أبدا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا.

فكان بين بني أمية وبني هاشم خصومة لا تلين.

وقدم عبدالمطلب مكة، وقد صار له فيها السقاية والفضل. وتقادم به العمر. حتى صار له من الولد عشر هم مانعوه. واستحق ما قد نذر يوم الحفر.

وأدرك أن لزاما أن يذبح منهم ولدا. واقترع بأسهم على كل سهم منهم ولد له، وتعلق قلبه بالأسهم خائفا منقبضا. مخافة أن يدركه ما يخشى. ووقع ما خاف.

وأصابت القرعة أصغرهم وأحبهم إليه عبدالله.

ودوى الصوت القديم في الأفق بلا تردد.

- يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.

وأتى عبدالمطلب سريعا بالسكين مظهرا الامتثال ليغالب ما نبت في قلبه من خوف، وانطلق به إلى فناء الكعبة عازما.

ورفع سكينه يطلب رقبة ابنه. حتى إذ كان كذلك أدركه العباس بن عبدالمطلب فدفعه صائحا: - لا والله لا يكون.

واجتمع القوم من قريش.

- والله لا نخلي بينك وبينه فتذبحه حتى تعذر فيه، والله إن فعلت لا يزال الرجل من بعدك يجيء بابنه يذبحه. فما بقاء الناس على ذلك؟

- فكيف بقاؤه مع النذر؟!

- اذهب إلى (سجاح) كاهنة بأرض الحجاز، فإن أشارت عليك بذبحه وإلا جعل الله لك مخرجا!

وانطلق الركب. ولاح الأمل بالنجاة. واستأذنت سجاح بأن يأتيها تبعها تسأله فانتظروا.

وأدرك الخوف قلب عبدالمطلب. فما اطمأن حتى قررت.

وفصلت العير، وانطلقت صوب مكة وكان الأمر قد تقرر. يفدي عبدالله بفدي من الإبل اقتراعا. فإن أصابت القداح الإبل ذبحت، وإلا ضيف مثلها

حتى يجيء أمر الله. وكان يوما مشهودا.

وضربت القداح. عشر من الإبل، وأصابت القداح عبدالله وقد اتخذ القوم من قريش مجلسا.

وأضيف للعشر عشر. فأصابت القداح عبدالله.

وتجمهر الناس. وعلا الصخب. وأضيف للإبل عشر. فأصابت القداح عبدالله.

وتغير لون عبدالمطلب. أبى الله إلا رأس ابنه؟

وأضيف للإبل عشر جديدة. وأصابت القداح عبدالله.

وذرف من عبدالله الدمع، ونادى القلب يا رب، وتجمهر الناس، وتعالى الصخب.

واشرأبت الأعناق. وأضيف للإبل عشر. وعشر. وأصابت القداح عبدالله. واستسلم عبدالله للأمر وامتثل.

وأضاف القوم عشرا. يبغون لو يفدون الفتى بمالهم كله. ولم تزل القداح لا تبتغي بعبدالله بدلا.

وربت الإخوة بأكفهم على ظهر أبيهم على حزن أثقله، وجهه صوب الكعبة، قلبه خاشع، ملبٍ، ساعٍ.

وأضيف للإبل عشر. وتعلقت الأبصار، وأصابت الأقداح عبدالله، وأدرك القوم أن لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ!

وأصر القوم على كمال المائة. وانفرجت شفتا عبدالمطلب بالدعوة يا رب.

وأصابت الأقداح مائة من الإبل فديا. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك في موضع قريب كان الغرابان يحلقان، يبصران ما حدث، يدارسانه.

وما إن أصابت الأقداح عبدالله حتى تبادلا نظرة.

- أولا يشبه الأمر ما قد حدث من قبل؟

- بلى. كتب على آل هذا البيت الفداء.

فانطلقا غير بعيد.

خلت دار الفاكه بن المغيرة من الضيوف بعد يوم غشيه فيه الناس، يضيف الكل بلا عد. ويشتري طول ذكره بالمال.

كان جسده منهكا من متابعة طعام الضيف، فاضجع إلى جوار زوجه هند بنت عتبة.

ما لبث أن قام يقضي حاجته غير بعيد.

حين رجع أبصر رجلا يخرج من داره مهرولا فانقض على هند يركلها بقدمه.

- من هذا الذي قد كان عندك؟!

- ما رأيت أحدا وما انتبهت حتى أيقظتني!

- فالحقي بدار أبيكِ!

وتكلم القوم في هذا الأمر وزادوا عن إتيانها الفاحشة حتى استثقل الأمر على عتبة في شرف ابنته فدخل عليها مهموما!

- أي بنية، اصدقيني القول، فإن كان ما يخبر به الفاكه صدقا دسست عليه من يقتله حتى ينتهي هذا القول. وإن كان كاذبا حاججته إلى كاهن باليمن!

- فانطلق نحاججه إذا!

قالتها هند بلا تردد ولا وجل حاسمة بعد أن نظرت إليه طويلا. قالتها بعزم لا يخلو من ألم.

فارتحل القوم نفرا من جماعة الفاكه من بني مخزوم، ونفر من بني عبد مناف جماعة هند بنت عتبة.

حتى إذا قارب الرحل الوصول لمح عتبة تغير وجه ابنته فنادى برفق: - أي بنية. هلا كان هذا قبل أن نسير وتسمع بنا العرب!

- يا أبتِ إني بريئة. غير أن هذا الكاهن بشر يصيب ويخطئ. وأخشى أن يرميني بسبة تظل بي بين العرب!

- فلا تبتئسي. لن أجعله ينظر في أمرك حتى أختبره!

- فنعم إذا!

وعمد عتبة إلى حبة بر فأدخلها في إحليل مهر. ولما وصلت العير وبلغ ركبهم الكاهن أنزلهم منزلا ونحر لهم.

فلما عرض عليه القوم تقدم عتبة.

- إنا قد جئناك لأمر. ولكن لن أدعك تتكلم حتى تعرف ما خبئت لك!

- ثمرة في كمرة!

- أريد أبين من ذلك!

- حبة بر في إحليل مهر.

- صدقت. فالآن انظر في أمر هؤلاء النسوة.

والتفت الكاهن إلى جمع من النسوة هند بينهن لا يعرف منهن واحدة فمر عليهن واحدة واحدة. حتى التقت عيناه بهند فقال: - انهضي غير رسماء ولا زانية. وتلدين ملكا يقال له معاوية!

فانقض الفاكه فأمسك يدها وقال هذه زوجي، غير أنها نزعتها.

- إليك عني، والله لا يكون منك أبدا!

وانطلقوا إلى مكة، فتزوجها أبو سفيان بن حرب، فولدت معاوية.

كانت هند قد أدركت أن ما يطيل الذكر ليس مال الفاكه وإن كثر. بل ابن من صلب أبي سفيان وإن قل ماله أو بخل به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-مكة - ٢ هـ:

إشراق الشمس في مكة لا يبشر بخير لأهلها، الصوت يخترق الوادي، يطوف في الأرجاء منذرا من يوم نحس مستمر.

- اللطيمة اللطيمة، الفاجعة الفاجعة!

صوب مكة ولى وجهه لا يلوي على أحد.

- الغوث الغوث!

حتى إذا ما تهافت إليه القوم مسرعين، جاءوه من كل فج، وأدرك ضمضم بن عمرو الغفاري أن قد بلغ خبره الآفاق.

ووفق فيما استأجره له أبو سفيان بن حرب، جدع بعيره، وحول رحله، وشق قميصه صارخا: - يا معشر قريش! اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها!

- يا معشر قريش! الغوث الغوث!

انتفض عمرو بن هشام مغاضبا ومنافحا قد احمر وجهه، وأشعلت النار أنفه!

- أيظن محمد أن تكون كعير بن الحضرمي؟ والله ليعلمن غير ذلك!

علم النبي محمد وصحبه بموعد خروج قافلة أبي سفيان، وقدروا لها قدرها، فالتمسوا مرورها وخرجوا علهم يصيبون مغنما مما فُقد في مكة، ولما كان أبو سفيان قد أرسل العيون فقد علم بترصدهم فاستأجر ضمضم مستجيرا بالملأ من قريش. مخافة أن يصيب مالهم الضرر، ومن ثم حول رحله إلى طريق آخر غير معهود. لم يطرقه العرب قبلا في رحلاتهم ولم تألفه القوافل.

كان عمرو بن هشام ثائرا مستثارا. شج في رأسه تركه حمزة يوما. ولطمة على جبينه إثر هجرة عمر على رؤوس الأشهاد فما تبعه منهم أحد.

يستنفر القوم ويحرضهم حتى مع أنباء تتردد عن فوات القافلة على أصحاب محمد.

- إن أفلتت اليوم فماذا عن غد؟ أونتركه شوكة في حلوقنا أبدا؟ اخرجوا واستأصلوا شأفته تخلو لكم العرب.

- بل نخلي بينه وبين العرب فإن أصابوه فذاك ما طلبنا. وإن أصابهم فابن أخ وذو قرابة!

- بل ذاك لحن تخادعون به أنفسكم!

- ما عيش الرجل إن لقي بنو قرابته من صحب محمد فقتل أهله وابنه وولده؟

- ذاك قول مخذل جبان. بل نضرب هؤلاء النفر من صحبه وما جمع لكم من أهل يثرب فلا تقوم لهم قائمة بعدها أبدا!

كان عمرو غاضبا دفعه الغضب لا يكاد يرى، والأمر له وما لأحد من قريش أن يخالفه لا سيما حال غضبه.

وتجهز القوم من قريش وأبوا إلا الخروج.

- والله لا نرجع حتى نرد بدرا. فنقيم ثلاثا. ننحر وتعزف لنا القيان. ويسمع بنا العرب. فلا يزالون يخشوننا بعدها أبدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آبار بدر - جنوب غرب المدينة -١٧ رمضان ٢ هـ - ١٣ مارس ٦٢٤م:

واجتمعت الجموع. وفوتت العير. وبلغ رسول الله الوعد.

- وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ.

وأبى الله إلا أن تكون ذات الشوكة. غير أن لا مناص من الشورى. واستشار النبي الصحب في أمر الملأ من قريش بلغه جمعهم.

- يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

أصابت كلمة المقداد من رسول الله موضعا. سر واستبشر. غير أنه قلب بصره في جل القوم. المقداد فارس من المهاجرين. غير أن الأنصار قوام الأمر اليوم. ناصروا وآووا. تبوءوا الدار والإيمان يحبون من هاجر.

وقد بايعوا على النصرة ما بلغ بلادهم. ولم يأخذ منهم العهد على ما خارج المدينة. جال بصر النبي مناديا ود لو استجار ولو ما قاتلوا لما لامهم أحد.

وقف سعد بن معاذ متسائلا:

- والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

- نعم.

- يا رسول الله. إنك قد جئتنا. فآمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله.

ودوى النداء بأن الله أكبر. وأرسل النبي بصره في الأفق. ففي القوم عتبة. وشيبة. وأبو جهل وأمية وسهيل.

- هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها!

ودوى صوت محمد في الأفق:

- سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والتقى الجمعان، قريش جاءت بخيلها ورجلها، تبتغي استئصال الصحب من حول محمد.

وتراءى الجيشان، وتقدم من قريش هاماتها، عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، فدفع لهم النبي بثلاثة نفر من الأنصار. حتى إذا ما استقلوا أمرهم وجعجعوا في المكان، بأن ادفع لنا يا محمد أكفاءنا من قريش.

فقدم النبي حمزة وعليًّا وعبيدة بن الحارث. ثلاثة ممن هاجر. من قرابة النبي لئلا يُقال خشي عليهم القتل.

وتعاقب القوم ضربتان فضربتان، والعيون معلقة بمواضع الضراب، والنبي يدعو باكيا.

- إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الأَرْضِ أَبَدًا.

وتعاور القوم الضراب، وتناوش الأبطال.

حتى إذا ما انقشع الغبار إذ بالقوم من قريش صرعى، وعلي وحمزة يحملان عبيدة إثر إصابة قاتلة.

ودوى الصوت في الأفق مرددا، ما ردده بلال يوما في صحراء مكة.

- أحد، أحد.

والنبي يشير إلى مواضع القوم مناديا:

- هذه مكة قد ألقت إليكم بفلذات أكبادها!

ها هي الرؤوس قد أينعت وحان منها القطاف. وتقدم الصحب يبغون النصر، والصوت لا يستكين.

- أحد، أحد.

قالها بلال بالأمس، الشمس تصهر جلده، والحجر يدمي صدره، وأمية يعتليه:
- عد عن دينك وارجع إلى دين قريش!

وصوت بلال يردده الصدى، وترجعه جموع المسلمين اليوم: - أحد، أحد.

وتراءى له أمية في الأفق، ثقيلا أبدا، كثقل حجر عذبه به.

وصرخ بلال يسابق الزمن فيسبقه:

- لا نجوت إن نجا!

وانطلق عاصفا.

حين أبصره أمية أدرك أن ليس بالإمكان تغيير القدر، أبصر الكراهية في عينيه، والإصرار على الانتقام يلوح في حركات جسده.

كانت ضربة بلال قدرا راسخا آمن به أمية حتى ناله.

غير أن هذا الفعل لم يكن من شأن عمرو بن هشام حين علته قدم ابن مسعود الرفيعة.

- لمن الغلبة اليوم؟! (قالها بأنفة).

- لله ورسوله وللمؤمنين! (نطق ابن مسعود).

نطق بها وقد عاد ذهنه إلى سنين قريبة، إذ كان في موضع السادة من قريش بفناء الكعبة، ينفذ أمر النبي بإسماعهم شيئا من القرآن.

فتقدم منه أبو جهل مغاضبا، فاجتذب أذنه حتى انتزعها في يده. والقوم يضحكون.

- لله، ورسوله، وللمؤمنين.

قالها وارتكزت عيناه على أبي جهل وقد أثخن جسده بالجراح. والصوت في الآفاق لا يخشى أحدا.

- أحد، أحد.

علا أبا جهل بقدميه، ذاتهما اللتين سخر منهما الصحب وابن مسعود يجمع التمر من نخلة حتى تبدتا على نحافتهما، قدمان في غاية الدقة، وجسد في غاية الدعة، يعتلي اليوم جسد أبي جهل ويهدر مع الصدى: - أحد، أحد.

- لقد ارتقيت اليوم مرتقى صعبا يا رويعي الغنم!

- أوليس قد أخزاك الله يا عدو الله؟

- وما أخزاني؟ إنما أنا رجل قتله قومه!

- أذن بأذن يا عدو الله!

قالها ثم انتزع أذنه بالسيف. سال الدم، وارتسم الرعب على محيا ابن هشام وسيف ابن مسعود يهوي على رأسه ينتزعها. وآخر ما سمعه من الدنيا.

- والرأس زيادة.

وسقط الرأس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(روي عن غرابين كانا يحتلان كبد السماء يومئذ، روي ذلك فيما لم تحط به الصحف).

- هذه مكة قد ألقت إليكم بفلذات أكبادها.

وقد أكل المسلمون اليوم أكباد الملأ من قريش.

- أكل كبدي حمزة! (تصرخ بها هند لفجاعة الخطب).

سرعان ما بلغ الأمر هندا فخرجت في شوارع مكة كاشفة الرأس تصرخ!

- أكل كبدي حمزة! واثكلاه!

قتل أبوها وأخوها وعمها في يوم واحد! في ساعة من نهار! محمد وجمعه قتلهم!

وقد وقف محمد على القليب ينادي:

- أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟

- يا رسول الله، أتخاطب قوما قد رموا؟!

- إنهم يسمعون، غير أنهم لا يملكون الرد!

- هَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.

تقلب هند وجهها في أبي سفيان، نذير شؤم. ربح قافلته، وصان ماله وأغرق قريشا في الحرب. وجر عليها هذا الألم والفقد. قلبها ينزف. وكبدها مأكولة.

اسمه وحشي، مخيف الوجه، سريع الحركة، عيناه كعيني صقر، يقلبهما في الأرجاء حيث حل، يدرك أبعاد المكان خير إدراك، يده قوية، تقبض على الحربة أبدا، يضرب ضربته، فلا تخيب. هكذا بالضبط. وفق ما قرر. بعض الناس يولدون لسبب. لشيء ما. وقد ولد وحشي ليضرب حربته. فيصيب. هكذا بالضبط.

اسمه وحشي، مخيف الوجه، غير أن قلبه ينبض لأن يكون حرا.

- اسمي وحشي يا سيدتي هند. لا تطيش حربتي أبدا، مثلما أخبروك عني!

قالها بثقة حر. وإصرار حر. وعينين متقلبتين بين الحرية وعبودية أثقلت كتفيه القويتين.

- هل لك بأن تقتل حمزة يا وحشي؟!

صمت مريع، حمزة الذي أخاف السادة من قريش، ووتر الملأ منهم في بدر.

- ضربة حربة لا تطيش مثلما تخبر. تملك بعدها حريتك أبدا!

- أأصير حرا؟!

- أجل!

- كبلال؟

أفلتت من أطراف لسانه. يتذكر بلالا وأيام بلال. يدعوه إلى ما اجتمع عليه محمد وصحبه خافض الصوت.

- أدعوك إلى فوز الآخرة، والحرية!

- الحرية؟

- هذا رجل يدعو للحرية يا وحشي. لا تخطئه. أن يصير الرجل كالرجل. لا فضل لعربي على أعجمي إلا بما قدم لهذا الدين! بادر إليه تربح!

إن الله لا ينظر إلى وجوهكم! ولكن ينظر إلى قلوبكم!

- قلوبنا؟

- قلبك يا وحشي مدار الأمر، إن صلح وإن فسد. إنما يريد الله التقوى منكم!

كسر ظهر هند، فجع القلب، وأكل كبدها حمزة.

- تاالله لآكلن كبده! فما رأيت يا وحشي؟

السادة العظام من قريش يسألون العبد وحشي رأيه، بخ بخ، إنما يمضي الأمر بحربة لا تخيب.

- تتربص بالرجل، ترميه على حين غرة، وتظفر بحريتك! وتمنح العطايا حتى ترضى!

- نعم إذن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرب جبل أحد – ٣ هـ - ٦٢٥ م:

وانطلق الجمع من قريش يطلبون نصرا واره الزمن، وثارات بدر. يوم فجعت فيه مكة.

وأخرجوا معهم الأهل والنسوة والولد لئلا يجبنوا.

وهند تصيح وسط طارقات الدف:

- ويها بني عبدالدار، ويها حماة الأدبار. ضربا بكل بتار.

إن تقبلوا نعانق، ونفرش النمارق.

أو تدبروا نفارق، فراق غير وامق.

وعلا من جهة جند قريش الهرج والمرج.

ما أراد النبي الخروج أبدا.

بل البقاء في المدينة فإن هاجموهم فيها ردوهم عنها.

غير أن القوم لم يشهدوا بدرا فكبر عليهم أن يفوتهم اليوم، وقريش جمعت لهم وأعدت. أفيقال جبن محمد وصحب محمد؟

وما زالوا بالرسول حتى خرج. وإن خشوا أن يخالفوه فردوا الأمر إليه، إن شئت لا نخرج يا رسول الله. غير أن ما كان لنبي أن يخلع لامة الحرب ما لبسها.

وتحرك الجند.

وبلغوا موضع أحد. وخشية من غيلة من خلفهم تراص الرماة على جبلهم.

- إن رأيتمونا يتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم! حتى أرسل إليكم.

كررها النبي مرارا وأصر عليها.

في بدر كان حمزة، وفي أحد كذلك. غير آبه بقراع السيوف. وقتال الأعداء. غير آبه بالدم.

حمزة الذي وقف يوم الصفين على رأس صف إلى جوار عمر، يطوفون بالبيت فما جرؤ أحد على أن يثنيهم أبدا.

غير ملتفت أيضا لعين غدر تتربصه، وحربة معدة وموت قريب.

واعتد وحشي في وقفته، لا غرض له بالحرب ولا بالضرب ولا بالطعان.

ولا يأبه بنصر القوم أو هزيمتهم.

إنما يطلب حمزة الذي لم يطلبه فارس فأدركه، يطلبه في غير المبارزة. في غير ما برع فيه حمزة وبرز على ميدانه. يطلبه في رمية غادرة.

عدل من وقفته، وتراءى له الرجل شجاعا لا يلوي على أحد، لا يدركه أحد. ولا يثبت أمامه أحد. استعد وحشي. فأطلق حربته، إلى القلب بالضبط!

وأصاب هدفه تماما. بالضبط هكذا.

- اسمي وحشي يا سيدتي هند. لا تطيش حربتي أبدا، مثلما أخبروك عني!

وما طاشت حربته اليوم أيضا.

وإن سقط حمزة غير أن الجند من أهل الإسلام لا يبالون بمن سقط، أكثروا القتل في قريش وأثخنوا.

حتى ولوهم الدبر. وحتى لاح النصر.

وهند تصرخ اثبتوا. وما من مرد.

جسد حمزة مسجى أمامها لا تكاد تبلغه، أريد أن آكل كبده ثم ولوا حيث شئتم.

- قاتلكم الله قوم هزيمة!

وانهمك المسلمون في جمع غنائم لاحت، وبدأ الرماة في التململ.

غنيمة يسيرة، وأرادوا النزول.

- لا تخالفوا عن أمر رسول الله!

- إنما انهزم القوم!

- لا تخالفوا عن أمر رسول الله!

- كان يخشى أن نغلب أما وإن انتصرنا فلا بأس.

وبدأوا في النزول سراعا حتى انكشف الجبل. في الظروف العادية وبين انهزام القوم فإن انكشاف الجبل ما كان ليكتشفه أحد. غير أن في القوم خالد بن الوليد.

وعينا خالد هناك، ترقب الأمر كله.

يقلب عينيه يرصد منفذا وقد لاح له! روحه تأبى الهزيمة ما بقي.

وإذ بصوت خالد وجنده وفرسانه يدوي من فوق الجبل.

- أدركوا أصحاب محمد قد انهزموا!

وأحيط بالمسلمين اليوم وزلزلوا زلزالهم! وعاد القوم من قريش أدراجهم وقد لاح النصر.

وكثر القتل وسالت الدماء. وسقط مصعب قتيلا ولشدة شبهه بالنبي تداعى الخبر.

- قُتل محمد. فأدركوا القوم لا يصمدون لكم!

وأظلمت الدنيا!

وحدها هند كانت تعرف الطريق.

صوب جسد حمزة تسير. وإليه تسعى.

تبرز خنجرها، تعمله في جسده، وتنتزع الكبد.

صوتها يعوي في أركان أرض المعركة.

- أكل كبدي حمزة.

قبضت الكبد، لاكتها، فمجتها، ومن ثم لفظتها من فمها. وهي تجيل البصر تتشفى من مشهد الجمع هناك عند الجبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مكة - ٢٠ رمضان ٨ هـ - ١ يناير ٦٣٠ م:

يوم الفتح كان مهيبا. طرق رسول الله مكة آمنا مستأمنا. وجلس في مجلس عز ليأخذ بيعة النساء.

هند مضطربة القلب بما كان بالأمس، بما كان يوم أحد. قلب واجف يود لو انخلع من بين جوانبها.

غطت وجهها -خلاف النساء.

- بَايِعْنَنِي عَلَى أَلاَّ تُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا.

فقامت هند:

- والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال. فلقد بايعوا بيعة واحدة.

- وَلاَ تَسْرِقْنَ.

تابع النبي ولم يلتفت فقامت سائلة: - يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بَنِيّ، فهل عليّ من حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟!

- خُذِي أنت وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ.

أدرك النبي من هي فتكلم:

- وَإِنَّكَ لَهُنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ.

- نعم، هند بنت عتبة، فاعفُ عمَّا سلف، عفا الله عنك.

وطرقت الذكرى رسول الله. ومرآى عمه وقد مثلت به! فاستجمع ما في فؤاده. اليوم يوم عفو وصفح.

- غفر الله لكِ. وَلا تَزْنِينَ!

وتذكرت هند ما كان من أمر الفاكه.

- يا رسول الله، وهل تزني الحرة؟!

- وَلا تَقْتُلْنَ أَوْلاَدَكُنَّ.

- قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم كبارًا، هل تركت لنا ولدًا إلا قتلته يوم بدر؟!

فتبسم النبي.

- وَلا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيِدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ.

- والله إن إتيان البهتان لقبيح.

- وَلا تَعْصِينَنِي فِي مَعْرُوفٍ.

- والله ما جلسنا هنا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف.

وتمت البيعة واستقام الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المدينة - ١٢ ربيع أول ١١ هـ - ٨ يونيو ٦٣٢ م:

المدينة غائمة، تتخوف الخبر، تتربص. مخافة الفاجعة، الطرقات مظلمة. مكفهرة.

ومرض النبي شديد. تدخل عليه فاطمة خائفة وجلة.

وجه أبيها مرهق، يسر لها كلمات يسيرة، تبكي، تنتحب.

يبتسم. ثم يسر لها من جديد فيشرق وجه الزهراء وتبتسم. حبيبته، فلذة كبده، وقرة العين.

طفلة تتبعه قديما في صحراء مكة. ترفع عنه الأذى، تمرر كفها الرقيقة على وجهه، تخفف الألم.

تبصر خديجة زوجه وأمها، مؤمنة إذ كفر الناس، مصدقة إذ كذبوا.

في المدينة تزف إلى فقير بني هاشم. راضية مطيعة.

يفضله النبي على من جاءها من خطاب. يقدمه على أبي بكر وعمر.

وغيرهما من أثرياء قريش.

لكن القلب أحب عليًّا وألفه. وأنجبت منه ريحانة بيت النبوة.

يروى أن لما ولد الحسن جيء به إلى النبي فقال إليّ ابني ما سميتموه، فقال عليّ حربا. قال بل هو الحسن فكان الحسن.

ولما ولد الحسين جيء به إلى النبي فقال إليّ ابني ما سميتموه، فقال عليّ حربا، قال بل هو الحسين، فكان الحسين.

- بم ساررك رسول الله؟ (تسألها عائشة مضطربة).

- ما كنت لأفشي سر رسول الله.

تقولها وتمضي باكية. والخبر يعمم، يقصم ظهور الرجال.

مات رسول الله، انقضى الوحي، وتوقفت الرسالات، وانقطع خبر السماء.

أتى أمر الله، وقام عليّ والعباس بالغسل.

يومها كان أمر الثقيفة. اجتمع الأنصار يولون عليهم رجلا.

- ابسط يدك يا سعد بن عبادة نبايعك!

آووا ونصروا، تبوءوا الدار والإيمان يحبون من هاجر. ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون.

تقدم يا سعد بن عبادة نبايعك! غير أن يجيء صوت محذرا: - لا يتركها المهاجرون من قريش.

- فمنهم أمير ومنا أمير.

- ذاك أول الوهن. (قالها سعد خاشعا).

وتداعت ذكرى حنين قبل سنوات قلائل، إذ انتصر الإسلام بسيوفهم ووزع الرسول الغنائم فأعطى للعتقاء من يوم الفتح فزاد. حتى وجد القوم من الأنصار في أنفسهم شيئا.

- يغفر الله لِرَسُولِ اللَّهِ، يُعْطِي قُرَيْشًا، وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ!

واستقبل سعد بن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم.

- يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، فقد قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيئًا.

- وَأَيْنَ أنت يَا سَعْدُ؟

- ما أنا إلا امرؤ من قومي.

قالها وأطرق مخافة أن يغضب رسول الله.

- فاجمع لي القوم من الأنصار لا أحد غيرهم.

وتجمعوا لملاقاة النبي وفي القلب شيء، وقلوبهم زائغة مخافة أن يترك النبي المدينة إذ لقي أهله. وفتح بلده.

- أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ؟

- لا، إلا ابن أخت لنا.

- ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ! مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عليّ فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا، فَهَدَاكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟

فصمت القوم وأطرقوا..

- أَلاَ تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار؟

- بماذاَ نجيب يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المن والفضل، وما أخذناه كان أكثر بكثير مما منع منا.

- أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شئتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: جِئْتَنَا طَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَوَاسَيْنَاكَ، وَخَائِفًا فَأَمَّنَّاكَ، وَمَخذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَمُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ.

أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟

أَلاَ تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ.

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ.

وأصابت كلمات النبي قلوبهم. فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم.

- إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة!

استدعى سعد الذكرى. وغالب دمعة آبقة.

وقدم إلى الثقيفة أبو بكر وعمر ونفر من المهاجرين فيمن قدم.

وتناوش القوم أيهم أحق بالولاية.

وعلي والعباس مشغولون بالدفن، حتى إذا ما فرغوا إذ بصوت ينادي بأن بايعوا لابن أبي قحافة بخلافة رسول الله.

- امدد يدك يا ابن أخي نبايعك! فإن بايعناك ما قام منهم عليك رجل!

قالها العباس لعلي. غير أن عليًّا أطرق.

- لا أكون من فرق جمع المسلمين وما انتهوا من مصيبتهم في رسول الله.

وما إن سارا معا حتى قدم سفيان بن حرب مغاضبا:

- ما بال هذا الأمر في أقل قريش قلة وأذلها ذلا، والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا!

- لطالما عاديت الإسلام وأهله يا أبا سفيان، فلم يضره ذلك شيئا، إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا. وإني ماض لبيعته.

ومِضى عليّ، وأسرها في نفسه ولم يبدها.

وأصابته الغصة من جديد إذ عهد أبو بكر إلى عمر من بعده. تعدته إلى غيره ثانية.

غير أن عمر قد سار الصراط. فعلا رقاب الناس بالحق. وأوردهم حياض الله بدرته.

واستقام له الولاة وإلا عزل. واتسعت الأرض وغيض المال. فقام به خير قيام واستشار الصحب وقدم عليّا ورأيه.

حتى إذا ما طعن على حين غرة عهد بالأمر إلى ستة نفر من أصحاب الشورى.

وجاءه العباس من جديد.

- لا تدخل معهم في شوراهم فتكون كأحدهم!

- لا أكسر جماعة المسلمين أبدا.

قالها ثم انضم لهم.

وتداول القوم واختلفوا. ففوض الزبير ما يستحقه من الإمارة إلى علي. وفوض سعد ما يستحقه من الإمارة إلى عبدالرحمن بن عوف، وفوض طلحة ما يستحقه من الإمارة عثمان بن عفان.

فقام عبدالرحمن بن عوف لعلي وعثمان:

- أيكما يبرأ من هذا الأمر فنفوض الأمر إليه، والله عليه والإسلام ليولين أفضل الرجلين الباقيين؟

فلما رأى أن لم يستجب أحدهما نزع نفسه. وأدرك علي أن الأمر لن يكون له هذه المرة أيضا!

وتداول عبدالرحمن الأمر مع الصحب، حتى جمع الناس في المسجد.

- أيها الناس، إني سألتكم سرا وجهرا بأمانيكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، إما علي وإما عثمان، فقم إليّ يا علي.

فقام إليه فوقف تحت المنبر، فأخذ عبدالرحمن بيده، فقال: - هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبي بكر وعمر؟

- اللهم لا. ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي.

فأرسل عبدالرحمن بن عوف يده.

- قم إليّ يا عثمان! هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبي بكر وعمر؟

- اللهم نعم!

فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان:

- اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان.

وتمت البيعة. وفي نفس علي من الأمر غصة. غير أنه بايع ثالثة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المدينة - ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ - ١٧ يونيو ٦٥٦ م:

قُتل عثمان.

تناقلت المدينة الخبر. تسور الثوار داره ليقتلوه. ضاقوا به، وضاق بهم، وضجت المدينة بالغمام.

وكان في المدينة بضعة نفر يفسدون في الأرض ولا يصلحون، عثوا فيها فسادا واستحلوا دم الخليفة.

قُتل في حجرته، يقرأ في مصحف قد بذل الوسع ليجمعه.

اعتزل الأمر من اعتزل.

وجاء عليّ مغاضبا، فلطم الحسن وضرب الحسين!

- أيقتل أمير المؤمنين وأنتم واقفون بالباب!

حاول أبو الحسن أن يقارب الأمر، ويباعد الفتنة. ويحل ما استشكل من الأمور.

أعيته الحيلة. وأعياه الشقاق.

عثمان يأمل منه أن يدفع عنه الناس. والناس يأملون منه أن يقيم الحجة على عثمان.

ودم الخليفة سال وقد قُتل مظلوما.

حذرهم معاوية جيشا يقض جمعهم يأتي به من الشام. احتل الثوار المدينة، وما جاء ركب الشام، منعوا عن الخليفة الماء وما جاء الركب، تناوشوا على بابه وما ناصره من الشام أحد.

معاوية في المدينة. تأخر. دبر وقدر. وتقاعس عن النصرة.

وقتل عثمان!

وتنازعت الأهواء.

فأهل مصر لا يطلبون بعلي بدلا. وأهل الكوفة يريدون الزبير، وأهل البصرة لا يقبلون بغير طلحة.

وسعد معتزل لا يطلب الأمر ولا يطلبه.

وسعيد بن زيد ذو قرابة من عمر، وقد ضج الناس عهد عمر. وشدة عمر.

علاهم بالدرة وسار بهم إلى الشدة.

أشار فقال:

- لو ولوها الأجلح سلك بهم الطريق!

- فاستخلف عليا!

- ما إلى ذلك من سبيل!

قالها وكأنما يستشرف حجب الغيب.

وتولاها عثمان فأتاهم باللين والدعة.

والعهد عهد لين. والزمن زمن لين، والخليفة لين سلس.

تاجر يدير أموره بالسلامة من الأمر.

فلا بأس عمر ولا دهاء عمرو ولا حلم معاوية ولا حزم علي!

وما كان أحوج الناس آنذاك لحزم علي وبأسه! لسلك بهم الطريق.

إذ إن التاريخ يمنح الفرصة مرة، فإن جنح الناس عن أن يستبينوا به الطريق ضلوا.

لربما ثقل على القوم من قريش أن تؤول إلى عليّ يوم موت النبي فيجتمع إلى بني هاشم الملك والنبوة.

وقد انشغل عليّ بدفن رسول الله حتى غشيته بيعة الثقيفة وأبى أن تنقض.

وتعداه الناس إذ بايعوا لعثمان!

واليوم يأتونه، وقد انفلت الأمر. وأظلمت الدنيا، والعهد عهد ملك لا خلافة. والأمر أمر دنيا لا أمر دين.

وقد استقبلوا أياما لا تعرف الفضل لأهله. ولا يملك فيها الرجل الأمر!

يباعده الحسن.

- لا تبايعهم واعتزل الأمر! فوالله لو كنت في جحر لاستخرجوك منه فبايعوك! فلا يتعداك.

يقلب علي وجهه في الجموع المائجة من حوله، انفلت العقد ويحتاج الأمر إلى رجل يقوم به.

- ومن لهذا الحمل يا حسن؟ من للنوازل إن جبن الرجال؟

وقد اعتاد على النوازل إن جبن الرجال.

يقلب بصره فيستعيد ذكرى الخندق.

قريش قد جمعت جمعها تريد المدينة وتقصد استئصال المسلمين فيها.

ويبرز فارسهم عمرو بن ود. جبلا مناديا:

- هل من مبارز؟

وفزع القوم عنه فلم يخرج منهم أحد.

وتقدم علي.

- يا رسول الله، دعني أبرز إليه!

- يا علي، إنه عمرو.

يقلب النبي في علي بصره ويشفق أن يُقتل مثلما قتل حمزة من قبل.

ويتمادى عمرو بن ود.

- هل من مبارز؟

- يا رسول الله، أبرز إليه!

- يا علي إنه عمرو.

ويقلب عمرو بصره في المسلمين مستحقرا، رجل في المعارك بألف.

- أين الجنة التي اوعدتموها إن قتلتم؟!

- يا رسول الله دعني أبرز إليه!

- يا علي إنه عمرو!

- ولو!

وبرز علي. ربعة من الرجال إلى القصر أقرب، أدعج العينين، حسن الوجه كأنه القمر ليلة البدر حسنًا، ضخم البطن، عريض المنكبين، شئن الكفين، أغيد كأن عنقه إبريق فضةٍ، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه، كبير اللحية لمنكبه، مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يتبين عضده من ساعده، قد أدمجت إدماجًا، وهو إلى السمن أقرب، شديد الساعد واليد.

وقد مشى إلى عمرو بن ود فهرول.

حتى إذا ما لاقاه قلب عمرو فيه بصره.
- من أنت يا فتى؟
- علي.
- ممن؟
- علي بن أبي طالب!
- انصرف يا ابن أخي. فإني لا أحب أن أقتلك!
تأمله علي ثم نطق صادقا:
- غير أني أحب أن أقتلك!
فما كان من عمرو إلا أن رفع سيفه وهوى!
غير أن عليا تلقاها بدرعه واعتورا القتال.
قلب النبي يخفق، يتذكر فقد حمزة يوم أحد. قلوب المسلمين خافقة.
- اللهم نصرك!
وتعامد السيفان، واشتد الضراب، رجل لرجل، بل جبل لجبل.
واشتعل الغبار حتى ما رؤي ما خلفه.
وانقشع، فخرج علي منه منتصرا، مكبرا، وكبر الجمع من بعده بأن الله أكبر.
هزمت الأحزاب!
- إذا القومُ قالوا مَن فَتًى؟ خِلتُ أنّني، عُنِيتُ فلمْ أكسَلْ ولم أتبَلّدِ.
فمن قائم بالأمر إن لم يقم به علي؟!
وتذاكر الناس ما كان يوم خيبر.
كثر القتال حول حصن لليهود. واشتد بالمسلمين الأمر، وطال الحصار.
- لأعطينَّ الراية غدًا رجُلا يحبّ الله ورسوله ويُحبّه الله ورسوله، يفتح عليه.
وتطاولت الأعناق تبغي شهادة بحب الله ورسوله، وتطلب الفتح!
فمن قائم بالأمر إن لم يقم به علي؟!
ودعا النبي عليا فقام بالأمر.
فمن للخلافة غيرك اليوم يا ابن عم رسول الله؟

وتكاثر المبايعون، وخشي أن يفوته الأمر مرته الرابعة فينقضي الأمر أبدا.

وأخذت البيعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقام الأمر لعلي بالمدينة، بايع طلحة والزبير على مضض، واستقام ما وراءهما من ثغور العراق. غير أن أمر الشام عصي في يد معاوية.

في زمن يقدر فيه للرجال قدره كأن الأمر محسوم.

معاوية من الطلقاء، أسلم عام الفتح، إذ لم يكن للإسلام من بد. وأبوه كذا. استكثر نار المسلمين يومها!

- لقد صار ملك ابن أخيك اليوم عظيما يا عباس!

- إنها النبوة.

- نعم إذن!

وأسرها أبو سفيان في نفسه. ولربما أسرها معاوية من بعده.

غير إن استقام الأمر فلا يعدله أحد بعلي.

ذاك الأجلح الذي ربما كان قد سلك بهم السبيل وإن تأخر الأمر –قليلا أو كثيرا- عن إعمال وصية عمر.

ولربما تأخر علي ذاته عن مقولة أبي سفيان !

- ما بال هذا الأمر في أقل قريش قلة وأذلها ذلا، والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا!

غير أن ليس عليّ من يملأها على المسلمين خيلا ورجلا.

- لا يكون علي من شق عصا الطاعة، بل أبايع أبا بكر.

غير أن معاوية غير آبه، ولم يبايع عليا!

زمن لا تعرف فيه أقدار الرجال، حتى يعدوا عليا واحدا منهم.

وطلب طلحة والزبير ولاية البصرة والكوفة فأبى علي.

- أحب أن تكونا معي أتجمل بكما، فإني أستوحش لفراقكما.

وأدرك القوم كيف يسير بهم الأجلح الطريق. وأن ليس لهما من الأمر شيء. واستبانت ملامح عمر وسيرته وبأسه.

شدة بعد رخاء. ودرة بعد عطاء.

ودخل عليه المغيرة بن شعبة، رجل رأي ودهاء في المعضلات.

- يا أمير المؤمنين، ثبت عمال عثمان على أقطارهم، وأرسل لمعاوية بذلك. يأتيك منه الأمان والطاعة، ثم إن استقر الأمر بدلهم إن أردت أن تأمن بأسهم!

- ولكني أكره الإدهان في ديني!

المغيرة رجل رأي. غير أنه يكره الإلحاح. فما كان منه إلا أن ولج دار الإمام يومه الثاني: - إنما رأيت أمس رأيا، أما اليوم فأرى رأيك فنعم هو.

وقلب ابن عباس الأمر على أوجهه:

- نصحك بالأمس وغشك اليوم!

غير أن عليا –كدأبه- يكره الإدهان في دينه.

- فثبت معاوية على الشام واعزل من دونه!

- أوننكر على عثمان أن يركب بنو أمية ظهور الناس ثم نفعلها نحن؟

- إنما ولاه عمر!

- إن معاوية كان يخشى عمر كخادمه، فلما مات عمر لم يعد يخشى أحدا!

أوعثمان كعمر؟ إنما عثمان رجل لين ودعة!

- انطلق يا ابن عباس فتول أمر الشام.

- لا والله لا يكون، أقلني يا أمير المؤمنين.

شد ما أكثرتم في الإقالة وكأنما بالأمر ليقوم به علي وحده. وهل علي كعمر؟ وهل عهده كعهد عمر؟ إنما عمر تمنى دارا من مثل أبي عبيدة يستعين به على حوائج الناس، وإنما يطلب علي أبا عبيدة واحدا يستعين به!

وأرسل علي سهل بن حنيف على الشام حتى إذا كان على تخومها لقيه خيل معاوية وجنده.

- إن كنت أميرا من قبل عثمان فدونك إمارتك. وإن كنت أميرا من قبل غيره فارجع إلى من أرسلك!

وأعلن معاوية العصيان، وأرسل رسالة إلى أمير المؤمنين دون أن يدعوه بالإمارة.

وأمر بها أن تحمل في شوارع المدينة جلية.

(من معاوية إلى علي)

حتى إذا ما خلا الرسول بالخليفة أخبره أن معاوية إنما يحرض الناس على المطالبة بدم عثمان وقتلته، لا يطلبون رجلا سواك!

وخرج معاوية واستوجب الأمر الإعذار والقتال، وأمر طلحة والزبير بالتجهز فطلبا العمرة!

عمرة طويلة الأمد أدركها علي! طويلة جدا فيما يبدو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- قتل عثمان المصريين!

تناقلت الناس الخبر إلى أم المؤمنين عائشة بعيد انقضاء حجها.

- ظلمهم الرجل، قوم طلبوا حقهم منه فبأي شيء استحل دماءهم؟!

تُقلب الأمر وتسترجع..

- بل قتل المصريون عثمان!

يجيء الناس بخبر جديد.

- بغوا وفسدوا! اعذروا الرجل فتاب فبأي حق قتلوا رجلا أن يقول ربي الله؟ فلمن البيعة اليوم؟

- لطلحة.

- نعم الرجل طلحة.

طلحة ذو قربى ومنزلة، وتميمي أيضا يتصل لأبي بكر بنسب.

غير أن الأخبار تواترت، واختلفت من جديد، تنبئ عن فحوى الأمر في المدينة.

- بل البيعة اليوم لعلي بن أبي طالب.

واسودت الدنيا.

- والله لتمنيت لو كانت السماء أطبقت على الأرض ولا أن يتم الأمر لصاحبكم.

قتل عثمان مظلوما، فوالله لا أقر بيعته حتى يتعقب قتلته.

وأدركها في المدينة طلحة والزبير، منعهما عليّ الولاية فضجوا من جواره.

- فلنخرج للشام ننتفع بهم له.

- كفاكم معاوية أمر الشام!

- فلنطرق عليه المدينة نأتيها من أطرافها.

- لا قبل لنا بجند المدينة، وإن القوم سرعان ما يقاربون ذكرى الخندق! وعلي رجل من رجال الخندق!

- فنجمهر له في البصرة بالطريق ومعاوية يكفينا أمر الشام. وأمر مصر بعد ذلك يسير.

- نثأر لعثمان من قتلته ثم يرد الأمر شورى للمسلمين يختارون من شاؤوا.

اضطربت عائشة مما تصاعد إليه الأمر.

- أتأمرانني بالقتال؟!

- بل تحرضين الناس للمطالبة بدم عثمان.

- فنعم إذن.

وارتحل الركب، وكلمات عليٍّ في يوم الإفك لا تغادر أذني عائشة.

- يا رسول الله، لا تحزن، النساء غيرها كثير.

وتقف عائشة بين الجموع تؤججهم.

- غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه أفلا نغضب لعثمان من السيف؟! ألا وإن خليفتكم قد قُتل مظلومًا، أنكرنا عليه أشياء وعاتبناه فيها فأعتب وتاب إلى الله، وماذا يطلب من المسلم إن أخطأ أكثر من أن يتوب إلى الله ويُعتب الناس؟ ولكن أعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا حُرمًا ثلاثا: حُرْمة الدم وحرمة الشهر الحرام وحرمة البلد الحرام.

واجتمع لعائشة وطلحة والزبير من القوم خلق كثير. يطلبون دم عثمان ويريدون رد البيعة وجعل الأمر شورى بين المسلمين.

وأدرك الإمام الشقاق. فتنة تستشري بلا رادع، أمير الشام يطلب دم عثمان ولا يقر البيعة.

وطلحة والزبير هناك في البصرة يؤججان الجموع ولا يعترفان لعليّ بسابقته وفضله ويهدران بيعته.

وخرج عليٌّ في جيشه يبغي ملاحقة الأمر واللحاق بما فات من غرس الإسلام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

باب قد كسر، تتسلل عبره الظلمة، ما كاد ينغلق.

ومدينة بها أقام النبي دولته ومسجده، يوليها ظهره عله يلحق ما انتشر من فتنة فيئده.

هنا حيث اجتماع الصحب والرفقة، وصحبة رسول الله. يتركها خلفه ليقاتل هناك بأرض العراق غير عالم بأنها آخر العهد بالمدينة أبدا.

اجتمع له من شيعته ونصيره عدد فانطلق إلى البصرة يسعى لمواراة الشقاق.

وملاقاة جيش لا يثبت له أمر، ولا يقر له قائد. اختلف فيه طلحة والزبير من يصلي بالناس، فما اتفقا إلا وقد أشارت عائشة بأن يصلي ذاك يوم وهذا يوم.

- فكيف والأمر قد صار إليكما؟!

- فالأمر شورى وليختار منا الناس كيف شاؤوا.

عائشة أيضا لا تستقر ولا ترتاح للأمر. قلقة أبدا.

بالأمس نبحتها الكلاب في الطريق.

- أين نحن وأي ماء تلك؟

- إنها الحوأب.

- ردوني ردوني (ترددها جزعة) أنا صاحبة الحوأب. (وقد استبان الأمر).

وعاد لذهنها ما كان..

إذ سأل النبي زوجاته يوما:

- لَيْتَ شِعْرِي أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الأَدِبِ تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلابُ حَوْأَبٍ، فَيُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلًا كَثِيرًا ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَ مَا كَادَتْ.

- ردوني ردوني! ليتني قررت في بيتي. لا أكون صاحبة الحوأب!

وانتشر الضجيج!

- لا يكون يا أم المؤمنين، يدركنا عليّ.

- ما الحوأب؟ هذه ليست بماء الحوأب!

وأقسم على ذلك بضعة نفر. ليست بماء الحوأب. وإن كانت لردت عن الجيش عائشة، وتبعها في ذلك خلق كثير. وقفل الجيش سائرا.

وأدركهم عليّ! والتقى الجيشان.

جيشان من الصحب والرفقة قد تبارزا وتنازلا. وكل يدعي حقا!

طلحة والزبير وعائشة يطلبون دم عثمان ورد الأمر شورى بغير اضطراب!

وعليٌّ يطالب ببيعة منحاها قبلا!

- يا أمير المؤمنين! أيجتمع الزبير وطلحة وعائشة على ضلال؟!

- إنك لملبوس عليك. إن الحق والباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال. اعرف الحق، تعرف أهله، واعرف الباطل، تعرف أهله.

ونادى عليٌّ في الآفاق بصوت يرجعه الصدى:

- يا طلحة، أحرزت عرسك وخرجت بعرس رسول الله تعرضها لما تتعرض له! أولم تبايعا؟

- إنما أكرهتنا! وما أنت بأولى بها منا!

- والله إني لعلى بينة من ربي، ما كذبت ولا كذبت ولا ضللت ولا ضل بي!

وصمت القوم فنادى عليّ الزبير:

- يا زبير! أونسيت ما كان مع رسول الله؟

- فما كان؟

- أما تذكر يوم كنت أنا وأنت في سقيفة قوم من الأنصار، فقال لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أتحبه؟)، فقلت: وما يمنعني؟ قال: (أما إنك ستخرج عليه وتقاتله وأنت ظالم).

وجزع الزبير وتقلب قلبه! وأراد أن يتحرك صائحا:

- والله لا أقاتلك!

وقفل يريد الهرب. فاستقبله بعض من جيشه!

- أتفر من الزحف؟ ذاك العار!

- العار خير من النار! والله لا أقاتله! ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا.

وانطلق الزبير لا يلوي على أحد. يضطرب قلبه مما لاقى. حتى إذا ابتعد عن المعركة انتصب للصلاة.

صلاة أخيرة إذ غفل فيها عن عمرو بن جرموز، قريب منه تبعه لئلا يفتن الناس. حتى إذا ما سجد يطعنه طعنة غدر فيقتله!

وخلت إمارة الجيش لطلحة فما أن تعاور القوم السهام حتى أصيب في موضع جرح قديم فانطلق دمه يسري فدعا: - اللهم خذ لعثمان مني حتى يرضى!

ومات طلحة!

ذاك يوم ليس له ما مثله فيما سبقه.

ذاك يوم قاتل الصحب بعضهم بعضا. وجيش عائشة يرقب عمارا في فئة عليّ فيفرون منه. مخافة أن يقتلوه.

- ويح عمار، تقتله الفئة الباغية.

والمسلمون اليوم يضرب بعضهم رقاب بعض في مقتلة عظيمة.

والحرب وقد تبدت فاتنة رشيقة القد حين طلت مرتها الأولى قد استحالت الآن عجوزا شمطاء تؤجج النار وتستثير الصحب فيقتل بعضهم بعضا.

واشتد الضراب وتساقط القتلى، وغلب جيش علي غلبة لا هزيمة بعدها. إذ تداعى جيش عائشة لا يطلب نصرا وإنما يسأل النجاة.

واندفع الجند إلى حيث عائشة فأخرجوها من موضعها.

- الغوث الغوث يا أم المؤمنين!

وأركبوها هودجا مصفحا على جمل دفع به إلى أرض المعركة.

- لَيْتَ شِعْرِي أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الأَدِبِ تَخْرُجُ فَيَنْبَحُهَا كِلابُ حَوْأَبٍ، فَيُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا قَتْلًا كَثِيرًا ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَ مَا كَادَتْ.

كانت الأرض زلقة بلا ثبات. والجمل يندفع إلى أرض المعركة رايةً لمن لا راية لهم يقتتلون من حوله.

- يا مسلمون الغوث الغوث. إنما هي زوج نبيكم أرادها القوم بسوء.

واضطربت القلوب. إن قتلت زوج النبي ما يفلح القوم بعدها أبدا.

- يا أمنا عائش لا تراعي

كل بنيك بطل المصاع

ينعى ابن عفان إليك ناع

- يا أمنا أعق أم نعلم
والأم تغذو ولدها وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلى هامته والمعصم
- نحن بنو ضبة أصحاب الجمل
ننزل بالموت إذا الموت نزل
والقتل أحلى عندنا من العسل
ننعي ابن عفان بأطراف الأسل
واستبسل القوم، وسعرت الحرب، وتساقط القتلى.
والجمل رايتهم يذودون عنه ويتقاتلون من حوله. حتى أصدر عليٌّ أمره:
- اقتلوا الجمل، فإن في بقائه فناء العرب.
واندفع القوم يضربونه. وعقر الجمل. وتداعى الهودج.
وتفرق الجمع وولوا الدبر.
ووضعت الحرب أوزارها عن نصر علي وجنده. نصر مغموس بدم الصحب والآل.
- كيف رأيت صنيع الله بك يا أخت إرم؟
- يا ابن أبي طالب. ملكت فأسجح.
- غفر الله لكِ.
- وغفر لك.
وانطلق علي والداعي يشدو:
- أشكو إليك عجري وبجري شفيتُ نفسي وقتلتُ معشري.
وقر في القوم القرار بأن كنتم تحتلبونها أيام عثمان لبنا، فلن تحتلبوها بعد اليوم إلا دما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقلب عمرو بن العاص بصره فيما آل إليه الأمر من شأن عظيم، قتل عثمان. يبتسم.

- إني إذا حككت قرحةً أدميتها!

باعده الرجل عن بلدة فتحها وثبتها عليه عمر. قتلوا عثمان مظلوما. ومعاوية يقوم بحقه وينادي بدمه في الشام.

- الله الله يا معاوية، بالحنكة والصبر تسود يا ابن أكلة الأكباد!

إلى أين المقر يا عمرو؟ ينازع نفسه ويسأل ولديه.

- يا أبت إن لك سابقة، ومات رسول الله وصاحباه وهم عنك راضون، فاعتزل الفتنة وادخل فيما دخل فيه الناس! (قال عبدالله).

- فما ترى يا محمد؟

- إنك ناب من أنياب العرب. والأمر لا يتم إلا بك. إن أتيت عليًّا كنت عنده كأحد من الناس. وإن أتيت معاوية منحك وزاد. فأدركه!

- الله الله. إن عبدالله قد احتاط لديني، ومحمد قد احتاط لدنياي. فلأقلب الأمر وليقض الله أمرا كان مفعولا.

يشتاق عمرو لأيام دهائه ومكره. تعرض لسابقة من هذا الأمر لما رجعت قريش من الأحزاب خائبة فأدرك النجاشي.

- فإن غلب محمد كنت تحت إمرة النجاشي لا محمد. وإن غلبت قريش فإنما أنا رجل منهم لا ينسون فضلي!

يقلب رأيه. حتى إذا دخل على النجاشي وجد رسل النبي فطلب منه رؤوسهم.

- ويحك يا عمرو؟ أأقتل رسول رجل يأتيه الناموس الذي نزل على موسى؟ أدرك الرجل تنجُ. فإنما يملك الأرض!

- أوحق؟

- أجل. فالحق به.

يبتسم عمرو إذ تذكر. يومها انطلق إلى المدينة حتى إذ كان على مدخلها التقى خالدا.

- الله الله يا خالد. عجزت النساء أن يلدن مثل خالد. قبضت ولم يفتنك الله بما ألم بنا يا أبا سليمان.

التقاه فرحب.

- إلى أين يا أبا سليمان.

- قد استقام الأمر. وإن الرجل نبي. فاذهب إليه وأسلم، فحتى متى؟!

الله الله يا أبا سليمان، استقام له الطريق فسلكه، فمال طريقنا ملتويا لا يكاد يبين؟

أعتزل فألحق بآخر الأمر كرجل من الناس، أم ألحق بمعاوية فأكيد له وأدبر.

ومعاوية رجل ملك لا خلافة، والأيام أيام ملك!

فكر عمرو وقدر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قام معاوية بالأمر في الشام خير قيام. علق قميص عثمان يقطر بدمه على المنبر. وإلى جواره أصابع نائلة في موضع يراه الناس. ونادى في الآفاق بأن أدركوا خليفتكم. قتل مظلوما فقوموا بدمه.

ألقى خطبته ثم انطلق إلى داره هادئا.

الناس تغلي، الثورة جامحة، وهو مستكين وكأنما لا يطلب شيئا.

الناس تأتيه.

- إنما أنت وليه! فاطلب بدم عثمان! الحق عليا وفض جمعه والناس معك.

يسوف، يتمهل. يتأخر. لا كتأخر المخذولين، وإنما تأخر من أدرك ما طلب، واستقام له أمره. كان قد تأخر من قبل في إنفاذ جيش إلى المدينة لنجدة الخليفة حتى قتل. ولو أبعثهم لربما نجى الرجل.

يقلب الأمر. ينبئ جيش عائشة بأن المقاليد له بغير قول.

فليغلبوا عليا على العراق يستقيم له الأمر. ويكفيهم الرجل أمر الشام.

ومن ثم يرد الأمر شورى بين المسلمين.

ما معاوية إلا رجل منهم.

جيشه في الشام آمن ما تحرك، ولا غرم.

وعلي في العراق قتل العشيرة والصحب وأجج النار.

الله الله يا معاوية، الله الله يا بني أمية. اقترب ملك العرب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من قبل كان القوم ها هنا فاتحين، ها هنا بالضبط على ضفاف الفرات مرددين تكبيرات النصر.

من قبل ها هنا تعقبوا بغلة عمر ألا تعثر فسووا لها الطريق.

واليوم عاد جيش محمد من جديد. لا ليلاقي فارس كالأمس. بل ليلاقي جند محمد أيضا.

وكأن الجيوش الفاتحة بالأمس أبت إلا أن تفتق جرحا ما عاد له أن يرتق.

وأحدثت حدثا ما كان له أن يزول.

وبان نهر الدم الذي سال في دار عثمان قد أحال الفرات اليوم دما.

فما زالوا يحتلبونها دما من بعد عثمان.

معاوية سباق. جاء بخيله ورجله فملأها عليهم مثلما أراد أبوه أن يملأها بالأمس لأجل علي.

ينادي بدم ابن عفان وقد تباطأ عن نصرته.

عثمان الذي كاد أهل مكة قديما لقتله.

وتداعت ذكرى الحديبية.

تداولت المدينة رؤيا النبي، ورؤيا النبيين حق.

- لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا.

واجتمع المسلمون لغرض العمرة. وتدافع صحب النبي. حتى إذا بلغوا الحديبية أدركتهم قريش: - أما والله لا يدخلها علينا محمد ما دمنا فيها!

- إنما الرجل لم يأتكم في قتال، يؤدي عمرته ويرحل. أفتصدونه عن المسجد الحرام والهدي فلا تزال العرب تداول أحدوثتكم؟

- أويدخلها ويقولون دخلها محمد عليهم عنوة!

- غلبنا الرجل أنى فعلنا.

وتناوش القوم. وأرسلوا وفدا تلو وفد يسأل المسلمين الرجعة. وابتعث النبي عثمان يفاوضهم في مكة لقربه منهم.

واحتجزوا عثمان وأشيع بأن قتل. وبلغ النبأ رسول الله فانتفض! ونادى في القوم: - بايعوا على القتال حتى الموت!

قتل عثمان غيلة وغدرا. فلنقاتلهم حتى يقضي الله أمره أو نفنى.

ويومها تقدم عليّ فبايع على الموت لأجل دم عثمان، وكأنما كتب على عثمان ألا يموت إلا ظلما.

- لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا.

ما كان يومها معاوية حاضرا. ذلك زمن يقدر فيه للرجل قدره. غير أن قد عاد عثمان يومها سالما، ليقتل في المدينة بعدها بسنين طوال.

يقلب عليّ بصره في صفين فإذ بجند معاوية قد احتجز الماء.

- اكتب يا علي! (قالها النبي في الحديبية) أُكْتُبْ بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَن الرَّحِيم.

يومها تصدى سهيل منافحا، لم يخالط الإسلام بعد قلبه:

- لَا نَدْرِي مَا بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَن الرَّحِيم وَلَكِنْ اُكْتُبْ بِاسْمِك اللَّهُمَّ.

- أُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّد رَسُول اللَّه.

- لَوْ نَعْلَم أَنَّك رَسُول اللَّه لَاتَّبَعْنَاك وَلَكِنْ اُكْتُبْ اِسْمك وَاسْم أَبِيك.

- أُكْتُبْ مِنْ مُحَمَّد بْن عبداللَّه.

- ولكنك رسول الله. (قالها علي).

- اكتب يا علي، مِنْ مُحَمَّد بْن عبداللَّه.

- والله ما أنزع عنك الرسالة يا رسول الله!

- فأرني إياها أزيلها.

تدمع عيناه، تغشاه الذكرى. يومها كان يضع موضع قدمه فيجيزه الرسول أو يصوبه.

واليوم يقيم الناس مواضعهم.

بالأمس كانوا حول النبي أمة واحدة. دمها حرام. واليوم يقاتل الرجل أخاه وولده. والدين واحد. وكلاهما تحت راية الله.

- أخر الجند يا معاوية عن الماء فلا نسب بأن منعناهم منه. (يقولها عمرو ويقلب بصره).

- والله لأمنعنها عنهم مثلما منعوا عثمان.

يبصره عمرو غاضبا، تدفعك حمية بني أمية لا زلت.

- إنه علي!

- ومالي ولعلي؟ قُتل عثمان وهو يؤلب عليه الناس.

يتأخر ابن العاص وهو يحك يده. يسرها ولا يبديها، الثمن مصر. والحرب خدعة.

يزور رأيا يوافق سريرته ودينه.

واندفع جند علي على الماء.

واشتد الضراب. وسال الدم. وتمكنوا منه.

- تنحوا عن الماء نشرب ويشربون!

- يا خليفة رسول الله بل منعوا فنمنع!

- إنما الماء ماء الله، لا يمنع منه خلقه.

منع المشركون الماء في بدر. ووارى المسلمون عتبة وشيبة القليب!

لكن اليوم معاوية أخوه في الدين ولو كان من الطلقاء. لا يمنعون الماء وإن بغوا.

يود عليّ لو كان كل هذا حلما.

لو ارتد طفلا إلى جوار نبيه. في كنف محمد يصد عنه.

يبيت في سريره ليلة الهجرة ويفديه.

لكن هيهات. مضى زمن النبوة وانقضت الرسالات.

وما عاد الناس يعرفون للرجل قدره.

ألا قاتل الله زمانا لا يعرف فيه قدر الرجال.

ويتبارز القوم، يود الرجل منهم لو تراجع، لو ما قتل أخاه. ويتناوشون لا يرغبون في القتال. ويرغبون عنه.

جيشان عظيمان مجهزان لو انطلقا لكانت مقتلة عظيمة.

- يا معاوية. لم تنازع الرجل؟ أوقدرك كقدره؟!

- ما أنازعه قدره، بل دم عثمان، وإني وليه! يسلمنا قتلته.

- وهل تسميهم رجلا رجلا؟ أم تريد أن تقتل بالشبهة؟!

- إن عجز عن تسميتهم وجمعهم لهو عن ولايتنا أعجز.

- إنما هو ابن عم رسول الله وأبو سبطيه!

- قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء!

وتبودل الرسل. وتبودلت المفاوضات. وتناوشوا، وتبارزوا.

بصفين جيش عظيم، لو اشتعلت الحرب فمن يطفئها؟!

- الله الله يا معاوية! أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ؟

يتناجزون فما يبلغ الرجل من الرجل إربه، وما يريد ليبلغه! وما يطلبه ليقتله.

تقام الصلاة فيدافعون خلف علي. لولا اللوم لأتم معاوية بعلي. فصلاة خلف علي أتقى.

وبوضع الطعام فيدافعون إلى طعمى معاوية. فطعام معاوية أشهى وألذ.

يريدون خلافة علي وملك معاوية. يريدون آخرة علي ودنيا معاوية.

يريدون تقوى بني هاشم، وحياة بني أمية.

وعمرو يقلب الأمر في قلبه مرارا، ومعاوية لا يحيد. وعلي راسخ كالجبل.

وتعبأت الجيوش. وتراقصت الحرب مغرية فاتنة. والتحم الجيشان فكان من أمرهما عجبا!

ووقعت المقتلة وما كان من ذلك بد.

- لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق!

- فوله يا أمير المؤمنين.

- ما إلى ذلك من سبيل. (قالها عمر).

وشد أهل الشام على جند علي يبغون أن يخلصوا له، فتراجعت الميمنة. وتزحزح القلب على أثره فانكشف. وتنادت ربيعة!

- يا ربيعة! لا عذر لكم عند العرب إن أصيب أمير المؤمنين وهو بينكم!

واجتمعت ربيعة، وتبايعوا على الموت. ونادى الإمام من مكان قريب:

- يا أشتر أدرك الميمنة.

وتراصت الميمنة، وتماسك الجيش بعد وهن.

بخ بخ يا أمير المؤمنين، رجل في المعارك بألف. وفي الشورى بألف. وفي القضاء بألف ألف. بخ بخ يا علي!

إلى علي يرد الفضل، لولا أن هذا زمان لا يرد الفضل لأهله. بل لا يعرف أهله.

وأنزل جند علي بجند معاوية النوازل. وتقهقر جند الشام فما استقر.

ولولا بقية باقية من أمل لفر معاوية. وأدرك جنده الهزيمة.

لكن في جيشه أرطبون العرب وهنا كان عمرو في الموعد. ونادى في الرجال: - احملوا المصاحف على أسنة الرماح.

ونادوا بيننا كتاب الله. ورأى جند العراق المصاحف ترفع. ونداءات جند الشام ترتفع. وما أدركوا ما كاده عمرو.

- الله الله في العرب! الله الله في الإسلام. من لثغور الشام إذا هلك أهل الشام؟!

من لثغور العراق إن هلك أهل العراق؟!

وتراءت المصاحف. وأدرك الجند نجاة من مقتلة.

وصرخ عمار.

- هل من رائح إلى الجنة؟ الجنة تحت البوارق! الماء مورود اليوم! غدا نلقى الأحبة، محمدا وصحبه.

ودخل في غمار الموت حتى قتل! وأجفل القوم.

- وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ!

- إنما أرادوا كتاب الله!

- إن القوم ليسوا بأهل قرآن (صرخ فيهم علي).

- استدعونا إلى كتاب الله فمن يرد!

- لقد قاتلت أصحاب تلك الراية ثلاثة مع رسول الله وهذه الرابعة! والله لو كانوا ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا بأننا على الحق وهم على الباطل!

- فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ!

- وهل بغوا!

- ويح عمار، تقتله الفئة الباغية.

- قتله من جاء به!

- ما جئنا به كرها جاء ابتغاء مرضاة الله!

وتكاثر القول وتعدد. وتخاذلت الراية، وتسلل النصر من بين الأصابع. وابتسم عمرو فقد دانت مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اجتمع جند معاوية. معاوية داهية ما في ذلك شك. يبذل العطاء ويستأثر بالرأي.

دخل شامه قبيل المعركة رجل من أهل الكوفة على بعير فتلقاه رجل من الشام بأن هذه ناقتي!

- والله لي!

- آتك بشهود عدول!

وشهد له من أهل الشام خمسون حتى أتوا الأمير معاوية!

- اقضِ بالناقة لرجل أهل الشام.

- أصلحك الله يا أمير إنما هو بعير!

- قضي الأمر يا رجل وماله من مرد.

وانصرف القوم فاستبقى الكوفي، فأعطاه وأجزل ثم ودعه.

- أخبر عليا أني ملاقيك بمائة ألف رجل لا يفرق أحدهم بين جمل وناقة! لو شئت خضت بهم النار لخاضوا!

أريب معاوية، يبذل المال ويشتري الرأي. وعلي يسير فيهم سيرة الرسول وصاحبيه!

وأمرهم شورى بينهم، وقد غالبوه فاحتجوا. وأثقلوه وأثقلهم بحرب لا مغنم فيها.

- تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم ونساؤهم؟!

وما صبروا ليدركوا غاية النصر. إنما النصر صبر ساعة ما أدركوها. ولو أدركوها لنجوا. وإلا غشيهم التعب قد غشيهم.

- يحكم بيننا كتاب الله يحكم به رجلان! فاختاروا رجلا منكم ترضونه.

ورضي عليّ ابن عباس فما رضوه! لأنه إلى عليّ أميل. ورضي الأشتر فحسدوهِ ورغبوا عنه.

- بل هو أبو موسى الأشعري.

- أبو موسى خذلني من قبل، ما نفعني.

يرى عليّ الأمر. يدركه، أبصر الخذلان بالغه. يراه منذ اغتروا برفع المصاحف على أسنة الرماح.

- أويرضيكم الرجل؟

- نعم.

- فقدموه. لا رأي لمن لا يطاع.

وتذكر إذ دفع القوم رسول الله للخروج يوم أحد فأباه، فما زالوا به حتى خرج.

يومها كسرت ثنتا رسول الله. ومن يدري. ربما كسرت ثنتا علي غدا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا حكم إلا لله!

وتفرق الجمع وتعالى الصخب.

- لا حكم إلا لله! والله قد حكم بقتال أو يفيئوا. وما فاؤوا يا إمام!

- خذلني الناس!

- فقاتل.

- ننتظر ما يؤول له أمر الحكمين وننزل على رأي الناس.

- لا حكم إلا لله!

أوتشك أنك على الحق؟ فلم قاتلناهم؟ فبم استحللت قتال الآل والصحب؟

ووقع في القوم الصخب والضجر. وتفرقت قلوبهم. وخرجوا على علي.

وتقدم من حزب علي أبو موسى الأشعري. ومن حزب معاوية عمرو بن العاص.

قوم أرهقتهم الحرب حتى كرهوها. فسعوا إلى التحكيم لا يبين علام يحكمان. فلم يشترطا ما يفعل في أمر دم عثمان.

وخشي معاوية كل الخشية. فقد يردها عمرو إلى نفسه أو لربما ولده. وتفرقت به الظنون.

وأدرك علي الخذلان وتوقعه.

وتقدم الحكمان إلى موضع للحكم ضرب لهم. فتأخر عمرو بن العاص مقدما أبا موسى.

- بل أنت صاحب الفضل فتقدم.

وأسر في نفسه أنه إن سأل الرجل إقرار معاوية لأدرك نيته.

- يا عمرو إن الرجلين قد خاضا في الدم، فلنول عبدالله بن عمر! ذو علم وفضل وورع فما رأيك؟

- فلنول عبدالله بن عمرو بن العاص. فوالله لا يعدوه ابن عمر في شيء.

فأطرق أبو موسى مفكرا، مترددا:

- رجل صدق. غير أنك قد غرسته في الفتن معك!

- إن هذا الأمر لا يصلحه إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم. وابن عمر لا يعرف كيف يطلق امرأته، أوليس هكذا قال عنه عمر؟

أطرق أبو موسى من جديد وقد أدرك أن الأمر لا يقر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمر بن سعد لا يقر. يأتي سعد بن أبي وقاص مغاضبا:

- يا أبتِ، الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ها هنا؟

- يا بني أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسا؟ لا والله حتى أعطى سيفا إن ضربت به مؤمنا نبا عنه، وإن ضربت به كافرا قتلته، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يحب الغني الخفي التقي.

واستيأس عمر بن سعد. ما أبوه بطالب للإمارة ولا سائلها.

يتوق للأمر. ولربما عدل الناس عن علي ومعاوية واختاروا سعدا. غير أن سعدا معتزل.

فتح العراق وذل فارس في القادسية ثم ها هو محتجب الأمر.

- فاحضر إنك أحق الناس بالخلافة!

- لا أفعل! إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه ستكون فتنة خير الناس فيها الخفي البقي» والله لا أشهد شيئا من هذا الأمر أبدا!

والأمر قد طال حتى خشي معاوية ما ينفذ منه. وأبو موسى لا يقبل من يقدمه عمرو وعمرو كذلك لا يقبل بإنفاذ أمر أبي موسى. حتى إذا استأنسوا رأيا فاستقرا.

واجتمع للأمر خلق كثير. فتداول الرجلان، وتنحى عمرو إكراما للرجل.

- يا أبا موسى قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه.

ووقف أبو موسى خطيبا:

- أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أمرا أصلح لها ولا ألم لشعثها، من رأي اتفقت أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع عليا ومعاوية ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا عليهم من أحبوه، وإني قد خلعت عليا ومعاوية.

وقلب الناس أبصارهم يقدرون للأمر قدره، فبينما هم كذلك إذ تقدم عمرو بن العاص: - إن هذا قد قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإني قد خلعته كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية. ابسط يدك أبايعك يا أمير المؤمنين.

وهاج القوم وماجوا، واشتعل أبو موسى غيظا. فسب في عمرو ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وتضارب القوم. فلا يصلون إلى هدى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معاوية آمن في حصنه، أتاه الأمر على خير مما كان يرغب، واختلف الناس وتفرق الجمع من حول علي فلا يثبتونه، بينما هو مستقر في بلده وافر لا ينفض الناس عنه.

يأتي أهل الكوفة عليا فيبكتونه:

- ما كان لك أن تقبل التحكيم!

- قد أبيت. غير أن لا رأي لمن لا يطاع!

ونادى في الناس أن تجمعوا للقتال. وتخاذل القوم، وتأخروا، وتسللوا من جيشه فرادى وجماعات وقد انحل العقد.

- إنما تقاتل لأجل الدنيا (جاؤوه صارخين) وإن كنت تقاتل لأجل الله لما شككت، بل اعتقدت أن الناس لا يعدلون عنك فلما عدلوا وتفرق الأمر واشتعلت الفتنة تقول فلنقاتلهم!

بل إنك أحللت لنا دماءهم دون أموالهم ونسائهم!

- قبحكم الله، وهل تستحلون أمكم وزوج نبيكم؟! قاتلكم الله هذا مما لا يكون.

وانصرف عنه القوم مارقين، وأبصر فيهم ابن الثدية، وتذكر إذ أتى هذا النبي في غنائم حنين صارخا ومعنفا: - اعدل يا محمد.

- فمن يعدل إن لم أعدل!

واسترجع علي مقالة النبي:

- إن من ضئضئ هذا قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد.

واستبان لعلي المنزل فعزم على أن يردهم قبل غزو معاوية لئلا يجعل من خلفه ثغرا.

واتخذوا بالنهروان موضعا، حتى قتلوا بعضا من صحبه منهم خباب.

- الله الله في صحب محمد، يساقطون اليوم بلا جهاد لأعداء الله غير أنها الفتنة. كلت الأيدي وتعب البدن.

وخرج علي بجيشه إلى النهروان يبتغي ردهم. ودعا في القوم. أخرجوا قتلة خباب: - كلنا قتلته!

وتصايحوا في جمعهم:

- هل من رائح إلى الجنة؟!

وشدوا على جيش علي غير أنه قاتلهم. وأعمل فيهم وأنزل حتى قتلهم.

نفر قليل. ومعركة يسيرة، غير أن كلت الأيدي وتعب البدن.

وعاد علي يطلب حرب الشام، غير أن تخاذل الجيش. حرب ضروس لا تنتهي.

كلما أطفئوها اشتعلت، وما لهم فيها من مغنم غير قتل الولد، وقطع الرحم.

فيتقل الأب ابنه، ويبارز الابن أباه.

- أشكو إليك عجري وبجري شفيتُ نفسي وقتلتُ معشري.

واستيأس علي، وأدرك أن القوم خاذلوه.

- اللهم إني سألتهم ما في كتاب الله فمنعوني. اللهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير طبيعتي وخلقي وأخلاق لم تكن تعرف لي فأبدلني بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا مني. ما يؤخر أشقاها؟!

وعاد بذهنه حديث النبي، إذ جاء علي النبي فسلم. فأقعده رسول الله إلى جنبه، فقال: - يا علي، مَن أشقى الأوّلين؟

- الله ورسوله أعلم.

- عاقر الناقة.

- فمن أشقى الآخرين؟

- الله ورسوله أعلم.

فأهوى بيده إلى لحية عليّ، فقال:

- يا علي الذي يخضب هذه من هذا. (ووضع يده على قرنه).

- فما يؤخر أشقاها؟! (ينادي فيهم علي وقد استيأس).

يسير في أهل الكوفة يدعوهم للتجهز فيعطونه الطاعة بالقول، فإذا ما التفت نكصوا، تولوا على أدبارهم.

تخلفوا عنه ولقد شاء لو خرج بالأمر وحده.

كثر المخلفون والمنافقون على عهد رسول الله.

يدعوهم للخروج لتبوك، لقتال الروم. يكرر فيهم الحث على الجهاد.

يتذكر علي عام تبوك. الحر شديد. اليوم قائظ، تلفح شمس الظهيرة الجسد وتصلي الوجه نارا. يشتعل الرأس بالعطش. يلجمه العرق. يأوون إلى الدور حيث الزوجات والماء بردا وسلاما.

يرطب جوفه. يملأ تشققات روحه المرهقة. من أهل المدينة من ينتظر الثمر. صيف حار يجبره ثمر وفير.

يؤجلون الاستجابة لأمر رسول الله للغد. أو بعد غد.

المدينة مضطربة. تموج بهدوء حذر. متربص.

يأوي المسلمون إلى خوف عظيم.

ظنوا أن الأمر قد استقر. جزيرة العرب استكانت. تمتد باسم الإسلام ويدعو داعيه بكرة وعشيا. دخل الناس في دين الله أفواجا. وتم الله عليهم نصره. وقرت عين النبي به.

غير أن ما يلوح في الأفق يهدد جهد السنين الفائتة.

ما سمعوا من صوت حتى حسبوه الروم.

أخذ الروم عليهم الأرض من أطرافها.

قتلوا رسول النبي. ناوشوا في مؤتة. واليوم قد جمعوا جموعهم. أتوا بخيلهم ورجلهم يريدون بغيا.

سيحوطون المدينة من جنباتها بجيش جرار ما سمع به العرب من قبل ومن ثم يستيقظ الرجل ليجد الرومي على رأسه!

يجتز رأسه أو يشطر جسده سيان. ما ضر شاة سلخ بعد ذبح.

وجهد السنون في استتباب أمر الجزيرة واستقرار الإسلام سيأتي عليه بنو الأصفر ما بين غمضة عين والتفاتتها.

أعناق الروم قد استطالت إذ أدركوا الخطر الكامن هناك. يحمله على أكتافهم رجال محمد!

(انفروا خفافا وثقالا) ينادي داعي الجهاد.

داعي رسول الله ينادي في القوم بأن البذل البذل. والتجهيز التجهيز.

ما اعتاد أن يعلن بغيته في الحرب. يجهز الجيش ثم يخبرهم أين القصد.

الأمر اليوم اختلف. أعلن النبي وجهته. نريد بني الأصفر فتجهزوا!

أنفق عثمان في تجهيز الجيش حتى قال النبي ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم.

جاء أبو بكر بكل ماله. وجاء عمر بالنصف!

قوم فقراء أتوا النبي قد عزموا الخروج. يريدون أن يحملهم. قال لا أجد ما أحملكم عليه!

تولوا وأعينهم تفيض حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

البعض أمره مختلف!

المال حاضر والجهاز يسير. يسوف. سيتجهز غدا ثم يلتحق بالجيش.

(أنفقوا خفافا وثقالا) يتسمع إلى نداء الجهاد ثم يمضي.

في جمع لم تظل مثله راية الإسلام من قبل خرج جيش النبي.

ثلاثون ألفا من القوم أعياهم الجهد. عمل فيهم القحط. أكلوا أوراق الشجر حتى تورمت شفاههم.

بلغ بهم العطش أن ذبحوا الإبل حتى يشربوا ما في كرشه!

يتفقد النبي جيشه. رجال صدقوا. تركوا ما خلفهم وأتوه ملبين!

جهد السنين الفائتة يتمثل أمامه في قوم أعياهم الجهد غير أنهم أعيوا الأمم بما في صدورهم من عزم ويقين.

ودولة الروم على بعد قدم أعياهم الخوف وزلزلت زلزالها.

يخرج النبي في جيش قوامه الأنصار والمهاجرون، ويتفقد العدو في الطريق فلا يجد أحدا.

وترك عليًّا على المدينة.

- يا رسول الله، تتركني مع المخلفين والعجائز والنساء؟

- ألا ترضى أنْ تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي؟

ورضي علي.

والناس لم يرضوا. وأبوا إلا أن يعيدوها تكرارا للمخلفين والمثبطين.

- لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ولا في البرد أيضا!

- ما يؤخر أشقاها إذا؟!

كان قلب عبدالرحمن بن ملجم يغلي غضبا بما قتل الإمام من صحبه في النهروان، قتل الصحب والآل وأعطى الدنية في دينه وارتضى بأن يحكم الرجال في كتاب الله! يالثارات النهروان! دم بدم!

حتى إذا ما أتى الكوفة رآها، قطام بنت الشجنة. جميلة المدينة. قُتل أبوها وأخوها في النهروان.

تربص بها حتى التقاها. فخطبها لنفسه.

- اطلبي ما شئت مهرا!

- ثلاثة آلاف درهم وخادما وقينة!

تلفتت حولها، ثم أردفت:

- ورأس الرجل!

- أي رجل؟

- علي بن أبي طالب بما قتل أبي وأخي!

- فإنك على هذا الشرط لا تريدينني.

- إن نجوت ظفرت بي، وإن قتلوك فما عند الله خير وأبقى.

ثم تركته وانسحبت بابتسامة تصليه نارا.

- ما الدنيا دونك يا زينة الدنيا؟

وخرج علي يدعو الناس للصلاة، يطرق الأرض وينادي في الناس:

- الصلاة الصلاة.

يتربص به ابن ملجم في مكان قريب.

- الله الله يا عدو الله!

- بل أنت عدو الله!

وهوى بالسيف على علي، على صاحب سيف جلى عن رسول الله.

وأصابه في مقتل. بالضبط حيث قال رسول الله.

وغابت الدنيا. ونادى المنادي.

- قتل أمير المؤمنين.

تحضر الركب ولاح في الأفق. محمد وصحبه، أبو بكر وعمر وعثمان.

- تبدلت الدنيا يا صحب النبي، تغيرت الرجال والأحوال. مضى زمن النبوة وانقضت الخلافة.

أرادوها ملكا.

طلبوها ملكا يا رسول الله! ارجع فأقم دعوتك!

يريدونها ملكا يا صديق. قاتل منهم من ارتد!

يريدونها ملكا يا عمر، اعلوهم بدرتك!

عفا الله عنك يا عثمان، لم عفوت عنهم؟ لم غفرت لهم؟

وغامت عيناه، وأدرك القتل. وأبصر الصحب.

هل من رائح إلى الجنة؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إنما أموالكم وأولادكم فتنة، هلم يا حسن اعل ظهر جدك. هلم يا حسين.

- نعم الراكب والمركوب.

- إنما أموالكم وأولادكم فتنة. سيدا شباب أهل الجنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ابسط يدك يا حسن نبايعك على القتال!

- أما انقضى عهد الدم؟ أما كفيتم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان النبي يتأمله بحب.

- إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ!

- بل تبايعونني على حرب من حاربت وسلم من سالمت!

تسمعوا إلى كلمة السلم فضجوا بها!

- ابسط يدك يا حسين نبايعك على القتال!

- أما وأخي حي فلا يكون!

وبايعوا الحسن كرها على ما أراد.

يقلب الحسن الأمر في عقله. أراد لو حقن الدماء منذ زمن ولو افتدى ذلك بدمه.

بايعوا أباه ثم تخاذلوا عنه ولم يطيعوا رأيه.

أبوه لا يحب رأيه، يعلم فيه رهافة ورقة، بينما الحسين أشبه به وأقرب.

شدته وبأسه.

وبدأ معاوية يلين، يرسل البعوث ولين القول. لا كما كان يخاطب عليًّا.

سبطا رسول الله أنعم بهما.

والحسن قد استيأس النصرة.

لن ينصروه، وعند اللقا سيتخاذلون عنه. خذلوا أباه. وخالفوا أمره. أججوا الحرب ثم تكاسلوا عنها.

ومعاوية يلين أكثر.

منزلتك محفوظة يا ابن بنت رسول الله، وعطاؤك مجزول وفير. والفتنة تؤد ويأمن المسلمون.

وتجهزوا. خرجوا بالحسن. حملوه على أعناقهم. حتى إذا ما اختلفوا فيه هجم بعضهم على خيمته وكادوا يقتلونه! لأن بان منه اللين وظهر منه السلم!

- أوغدر قبيل اللقيا؟ والله لا يكون.

وبدأت المفاوضات بينهما!

- تنازل والأمر لك من بعدي! ولك من بيت المال قدر!

- بل شورى بين المسلمين فلا تعهد من بعدك!

- نعم إذن!

- ويؤمن كل من كان قد خرج ضدك!

ويبادر معاوية إلى صحيفة فارغة فيمهرها ختمه. ويرسلها للحسن.

اكتب ما تشاء يا ابن بنت رسول الله!

ويخطب الحسن!

- إنّا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل، بظُبي السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى.

وقبل القوم الرضى على مضض.

وأقر الحسن الأمر، وذهب الحسين مغاضبا!

- لا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك!

والناس يلومون!

- يا عار المسلمين!

- العار خير من النار.

- هلا استمسكت! فإن الناس لا يستبدلون ببيت النبوة أحدا!

- قد استبدلوا مرة ومرة ومرة!

وارتحل الحسن إلى جوار جده في المدينة، منها خرج علي فلم يرجعها، واليوم يعود الحسن وقد أثقلتهم الحروب، فلم يزل كذلك حتى مات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جيء بأمرها إلى الحسين.

- اسمها زينب يا إمام! جميلة جميلات عصرها. كانت عند عبدالله بن سلام، فاحتال له معاوية فطلقها، وأبت أن ترد. إن لها أبا جلفا لا يرد يزيد إن جاءه خاطبا. سلمها من قبل لابن سلام والي العراق وسيسلمها غدا لابن أمير المؤمنين. ولا يقبل منها قولا. وإني لا أرى لها حولا ولا أرى مثلها يليق بها ذلك.

- فما ترى إذا؟

يقولها الحسين متهيبا.

- أرى أن تقدم إليه فتخطبها، فإن جاءه ابن بنت رسول الله ما قدم عليه أحدا إلا برضاها. وما أراها ترغب عنك وتفضل عليك أحدا. فالإسراع الإسراع يا ابن بنت رسول الله.

- هو ذا.

قررها الحسين.

وقال معاوية:

- رب ساعٍ لقاعد.

وكان بين يزيد والحسين خصومة لا تلين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحل الشام يحمل الخبر، وعلى الرغم من سريته، وتكتم الرحل، إلا أنه عُرف. قرأت على وجوههم. فداحة الخطب، التوتر والقلق.

لا يغيب فحوى ما يحملون عن أحد، نظرات ساخرة يتداولها الصحب، ابن الزبير والحسين بن علي، عبدالله بن عمر أيضا!

مات معاوية، وها هم أركان دولته يقاتلون الوقت، يصارعون الزمن لأخذ البيعة ليزيد قبيل انفراط العقد، يزيد ملهوف، بيعة من ثلاثة نفر هي إثبات أحقيته بالأمر، وصك شرعية لن يحيد عنه.

يتمثل وصية أبيه الأخيرة، معاوية، الذي خالف شروط العهد ونقض مع الحسن موثقا، يمنح يزيد وصية سحرية ليستتب له الأمر. يقاتل من أجل وجود ابنه على رأس عرش، بمسمى الخلافة!

قبيل ذلك بقليل كانت الخيوط في دمشق تتشكل، وترتسم.

يرجع معاوية البصر في دولته، أرساها بخليط أموي فريد من الحلم والدهاء، فيرتد إليه البصر خاسئا وهو حسير، لن يقبل معاوية بحال أن يؤول الملك إلى غير أموي.

والحسين بالمدينة قابع، ينتظر، والموت يقترب ولا مناص من العجلة، وإذا ما نازع عليًّا بالدهاء حتى غلبه وحتى نادى في الآفاق بأن حكم الله بيني وبينه وارتدى الورع مرتلا أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، غير أن معاوية خير من يعرف قدر الحسين، بل قالها على الملأ بأني كنت أجد ما أعيبه من علي ولا أجد ما أعيبه من حسين.

أواه يا معاوية، لقد ظللت فيهم أمدا ترد جدلهم بحكمة وتصد عصيانهم بحلم وقد استدبر العمر واستقبل الموت فما للحلم ذاك اليوم محل، ويزيد لاه عابث، غافل عما تعد له من مجد، يحفظ في نسله الملك وفي بني أمية من بعد.

- امنح البيعة يا حسين تنجُ، امنحها صكا شرعيا لبني أمية ما بقي الدهر!

لقد أجاد معاوية قراءة خصومه ومن ثم منح يزيد خلاصة الفكر بقوله:

- أن يا يزيد، إني لا أخاف على الملك إلا هؤلاء من قريش، الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن خرج إليك فاصفح عنه فإن له رحمة ماسة وحقا عظيما، أما ابن الزبير فإنه خب ضبع فإذا أمكنته فرصة وثب فإن هو فعلها فقدرت عليه فقطعه إربا إربا إلا أن يلتمس منك صلحا فإن فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت.

- واحقن دماء قومك ما استطعت.

رددها مليا.

تردد رجعها في عقله ولم يقطعها إلا مرأى سعيد بن عثمان بن عفان.

لم يلتفت معاوية إلى متى أذن له بالدخول، بل ولم يلتفت إلى كيف استفتح كلماته، ولكن اخترقه قوله: - يا أمير المؤمنين علام تبايع ليزيد وتتركني! فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وإنك إنما نلت ما نلت بأبي.

تأمله معاوية، وأسرها في نفسه ولم يبدها له (كلكم بني أمية قد تكالبتم عليها! ويحك يا ابن عثمان، ورثتم حجتي فما زلت تقارعني بها، أوكل رجال قريش خير من أبي وكل نسائها خير من أمي؟!)، عاد معاوية لتأمله مرارا

وقد عاد لذهنه يوم الفتح إذ وقف أبوه متأملا جيش محمد محادثا العباس: - والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما.

- إنها النبوة.

- نعم إذن!

عاد يتأمل سعيدا من جديد وقد ارتسمت المودة على محياه وهو يقول باشًّا: - يا ابن أخي، أما قولك أن أباك خير من أبيه، فيوم من عثمان خير من معاوية، وأما قولك أن أمك خير من أمه، ففضل قرشية على كلبية فضل بين، وأما أن أكون نلت ما أنا بأبيك فإنما الملك يؤتيه الله من يشاء (اذدرد لعابه وعد تكرار جملته تلك ألفا)، قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب، فنحن أعظم بذلك منة عليك، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن داري مملوءة رجالا مثلك بيزيد (أدرك أن حان وقت الجد فاتسعت ابتسامته وقال مرحا) ولكن دعني من هذا القول وسلني أعطك!

توشك بنو أمية أن تتآكل الملك يا معاوية، حتام تولهم وتول غيرهم لأجل أن يملك يزيد؟!

إلى جوار مستقر رسول الله يرقب الحسين الجموع، يتسمع الخبر، حكايا التاريخ القديمة، أحدوثته المكررة.

تصل إلى أذنيه المرهفتين ما تبثه العيون من شرر.

كلنا بايع، لم لا تبايع أنت؟ كلنا منح الصك، أوتستنكف عن الركب؟

اترك وحدتك، وامنح شرعيتك مختارا، يا ابن بنت رسول الله.

اركب معنا!

قارب النجاة لاح، اركب معنا، تنقذ عنقك، وتنجُ، أبدا.

يستمع الحسين إلى الصوت، يقلبه عقله، يتلمسه قلبه، جوارحه، فتستنكف روحه الحائرة أن تقر.

يولي وجهه شطر مكة، ينادي في الأفق بصوت يردده الصدي:

إني أرتحل.

ايذنوا بثورة، نادوا بمدد.

ما أقسى الوحدة. وحيدا يا حسين، وحيدا جدا، وإن تكاثر الصحب، توافدت النصرة، وتسمى بشيعتك الركب، تقر في قرارة نفسك بالوحدة، وبأنك إذ

تواجه الباطل غدا، ستواجهه وحدك.

تقلب في الوجوه، تقتفي أثر النبوة، لا خلاص، لا نصير ولا ناصر غدا!

يأتيه الصوت، ابق إلى جوار نبيك، يأتيك العون والمدد، وجيوش النصرة تولي وجهها شطرك غدا.

لا معين! إنما القوم أرادوا رأسه، لا راد لهم عنه.

مات رسول الله، انقضى الوحي، وانتهت الرسالات، وما بقي غير الحسين.

امنح البيعة يا حسين تنج، أبدا!

وجاء رسل الكوفة، وتعاقبت الرسالات.

أقبل إلينا ننصرك، نرد عنك، ونذود عن حياضك، أقبل، يا حسين، نواسيك.

وفود الكوفة تطرق الأرض، أقبل، أرهقنا الظلم، ضرب بنو أمية منا الظهر، ركبوا الدبر، واستحلوا الحرمات.

أقبل إلينا نبايعك، ننصرك، نحملك على الأعناق، ونؤسس الخلافة من جديد. على منهاج النبي، على شريعة جدك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريق طويل من الحجاز إلى الكوفة. ضج عقل الحسين بالفكر، كان لزاما أن يضع حدا لتساؤلات لا تفتأ ترهقه. أملا في نصر، يخشى الخذلان!

ترى هل ستلتقط الآذان الكليلة خفوت صوته؟ تدوي صيحته في الآفاق، تعيد ما اندثر من عهد النبوة، أيام النبوة، ومعجزات النبوة!

- بربك يا أخي! لا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة أبيك!

بربك لا تُخرس آخر الأصوات القادمة من زمن بعيد.

بربك قف على أبواب الكوفة هناك واصرخ، بأنا آل بيت لا يستسلم!

- يا حسين! لن ينصروك، إن ينصروك اليوم، كان أولى بهم نصر أبيك!

يا حسين إن قومك خاذلوك. يا حسين، من تهب لنجدته سيعين غدا قاتلوك!

- ما ننادي يا أخي رحل البشر، إنما نسع باسم الرسالة، والرسالة يا أخي، حمل ثقيل.

أثقلني حملي، يا أخي، وثقلت كلمتي، ووددت منها، أن تصل، أن تبلغ الآفاق، أن تسمع الآذان، تحي القلوب، وتجدد الأفكار، علها تحي يوما ما اندثر.

- يا أخي، إن يبلوغك اليوم، يقتلوك!

ولئن قتلت اليوم ما عادوا يعبأون بعدك بدم، يا أخي، إن وطء جسدك خيلهم، لن يبالوا بعدنا، أبدا، بشيء!

ويصير دم آل النبي ما بقي عهد الأمة، شيئا زهيدا. يا أخي، لا تدعهم يقتلوك، فيقتلوا الأمل الوليد، ويئدوا فجرا يلوح، من بعيد، يا أخي، فلتمنح الناس الأمل ولو كذبا، أملا بغد لا يجيء. فلتمنح الناس الأمل بثورة غدا تجيء، يا أخي، لا تدعهم يقتلوك، فنستعيد ذكرى أبيك.

- إن يقتلوني اليوم فقد أرادوا بالأمس أن يقتلوا جدي، رموه يوما بالحجارة، لم يبالوا بالنبوة أو الرسالة، هل يبالون بالنسب؟

وقد أراه، وأستعيد الذكرى، يتبعه يومها غلمان الطائف، يرجمونه! خير خلق الله خرج يوما من مكة مهاجرا، ومطاردا! أوكان جدك يومها هينا؟!

- يا أخي، مضى زمن النبوة وانقضى عهد الرسالة، ما عاد وحي من السماء ينزل.

- لم تصمت السماء، لا تقلها، لكن أصاب الناس بعض من صمم، اخفض صوت الصخب حولك واستمع، الرسول يجول هنا في ركبه، أنصاره، وتابعيه، قد كان يمشي خلفه ركب كبير، والكثير سماسرة، انفضوا عنه، وخذلوه، والرسول هناك وحده، ينادي وحده!

أنا النبي ولا كذب، أنا ابن عبدالمطلب!

لا منجى من الخذلان أبدا! يا حسن!

لو كنت وحدك، أو حتى بين آلاف الجموع، هم خاذلوك. لن ينفعوك.

- أراك تصبر، يجيء جمع، على أثر جمع، بالمدد، يثقلها ظلم، ثم ظلم، بلا عدد.

تأتيك تترا، تبتغي رفع الحرج، وتقول حي على الجهاد، جئناك يا ابن رسول الله جمعا، بالمدد.

- صوت واحد في المعارك، كصوت ألف!

لا يغرنك يا أخي كثر الصخب، إن يقف معك رجل صادق لا يغنيك عنه ألف، أو ألف ألف!

ويذود عنك من المدي، ومن السيوف الغادرة.

ويجيء صوت لا يكذب من غياهب التاريخ!

يا حسين.. ليتني كنت معك، لذدت عنك، وفنيت دونك، وانتهيت.

يا حسين، ليتني حضرت يومك أو شهدت، لدفعت عنك، سيفا بسيف، والضراب العاتية، والجيوش الباغية عنك دفعت.

من لنا بعدك؟ يا حسين، يربت على كتف الثكالى التائهين، ويخفف وطء الترانيم الحزينة. يا حسين، القلب غُلف.

يا حسين، نجوب أقطار السماء لأجل قطرة من شذاك، ونذرع الأرض بحثا عن ثراك. ولأجل صوت من عهد الصحابة والنبي، ونجول في الأرض ننادي باسم الإله.

أبو ذر يعلنها صريحة، غرتكم الدنيا، أخذتكم الشهوات، والأموال، واستبعدتم اللقيا.

- الظلم طال يا أخي، واستطال عهده، ما عاد يجدي منك ذلك القول القديم.

- الناس؟ الناس تبغي صرخة لا تستكين! الأرض عطشى للدماء، وتريد وقفة لا تلين! ولا تهادن، لا تحابي، لتستقيم!

فلتسمعها، لتعيها مني يا حسن، من لم يمت بالسيف! مات بسقيا من عسل!

- يا أخي، هون عليك، هم قاتلوك، لو يطالون جسدك لمزقوك، لو يبلغوك؟ لصلبوك. هناك على رأس المدينة، لا يبالون بالتقاليد القديمة.

من ثم؟ لأغرقوا الأرض ذهبا.

- لكن ذكرى ما ذهب، وإن استطال عهده.

- من طال ذهب بني أمية ليس يثنيه أحد، ما بيع اليوم بألف، يباع بالمجان غدا.

- المرء يسري، والمنايا تدركه، والحق والله عسير، لا يقوم به إلا الرجال.

- مضى زمن الفرسان، وانقضى عصر الأبطال. انظر إليهم! ما بقى سوى تلك المسوخ. يخبرك قولا، ثم يكذب، ينكرك، ويخذلك!

- المرء يمشي والمنايا تبلغه، من لم يمت بالسيف، مات بغيره.

- هلا التفت قبلا إلى الجموع، عذرا، إلى القطيع، غدا يقولون مثلما قالوا بالأمس، نأكل في رحل معاوية ونصلي ليلا خلف علي.

- يبغون طعمى معاوية وصلاة علي؟ ذاك ما لا يجتمع!

- ترى فيهم يا أخي، من يستمع؟

- ينصرني منهم صادقون!

- ابن عباس؟ ابن الزبير؟ ابن عمر؟ لن يخذلوك، لكنهم أيضا لن ينصروك حين تبرز للقتال. الناس يبغون الدعة، يفهمون ما يرون، لا يبالون بالقيم، والمبادئ، تلك أوهام قديمة، تقاليد فرسان، يا أخي والله مر ذا الزمان! الصادقون اليوم ما عاد يلقاهم أحد.

أخبرك أمرا؟ الناس تعشق الكذوب، وتخوض خلفه أرضا وأرضا، يسكرهم الكذب الكبير وينتشون، والصدق؟ لا! وألف لا! الصدق مر، علقم، وحش المذاق!

ومن ارتوى بالكذب، سكران أبدا! ما استفاق.

الناس تسعى للخذول تؤمنه، وتفر أبدا من أمين، وتنفره!

وتنادي في الأفق طويلا! أنبايع نحن جميعا؟ ولا تبايع؟ أتراه كبرا منك؟ أم غرورا؟ أوتدفع الدم رخيصا لأجل كلمة! يا حسين؟

- الكلم برهان الرجولة، دين الإنسان كلمة، العز كلمة، والهوان.

الكلم يا قومي شأن عظيم، وثقيل في الميزان، الكلم ميثاق غليظ، فليت قومي يسمعون.

وحسين يمضي، يسري، لا يستكين، والحسن يتابعه.

الحسين محتار أبدا، ويعلم بأن ذا اليوم حزين.

والمرء يسري وإليه تسري المنايا، لا تخطئه. والخوف من الخذلان، ما عاد يجدي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليل طويل، الظلمة اشتدت، العتمة قاحلة، والنصرة تلوح من بعيد.

كسراب بعيد، لا يحسبه الحسين ماء، تقر عينه أحيانا نعم، لكنه اختبر الخذلان، ومن اختبر الخذلان لم يعرف بعده أمنا أبدا.

صوب الكوفة يولي وجهه، مدينة حصينة تضم أنصارا، ومددا، وتبشر بثورة عاتية لا تلين، تدك عرش الطاغية الصغير، قبيل رسوخ أمره واستتباب ولايته.

قبيل أعوام طويلة، ومع مبتدأ الأمر، وصل مصعب المدينة، خائفا يترقب، يضم في صدره قبس النبوة، يبشر بالتعاليم القديمة، يحمل العدل، ويبتسم،

لا يخشى خذلانا ولا يعرف له سبلا.

يقولها عالية: اخفض سيفك واستمع، علك تجد خيرا!

كان مصعب واثقا، من يجد خيرا يتبعه، واليوم؟ من وجد خيرا يزهقه، يهرب منه.

مهد مصعب الطريق إلى هناك، وعندما ارتحل النبي وجد نصرة، ومددا، وترحابا.

اليوم يخوض الحسين وصحبه الطريق مهاجرين، غير أنهم، بلا أنصار!

أرسل الحسين إلى الكوفة مسلما، يتنسم الأخبار، ويطلب النصرة.

ويتطلب منه الخبر، والي يزيد سهل، لين، يحب الدعة، يرى بوادر الثورة فلا يتحرك، ويرى طيف الحسين فلا يتكلم.

وعُزل. وقدم ابن زياد، وجهه كقطع الليل مظلما، قاس، ظلوم. فاسق، عربيد.

يعمل سيفه فلا يردعه رادع، وجرى الخوف في أفئدة الأنصار.

إذ رأوا في عيني ابن زياد نهاية الأمر. قبيل ابتدائه.

ويعلنها ابن زياد كدأب كل طاغية، موتا، موتا.

ويعجل إلى ابن هانئ، من بيده يدير أمر الحسين بالكوفة.

أين رسول الحسين؟

يستنطقه، وابن هانئ صلب لا يلين، ولا يجيب، يرمق الطاغية بحدة ويقول: والله لو كان مسلم تحت قدمي ما دللت عليه!

ويصدر الحكم بلا رجعة ولا راد، أن ألقوا ابن هانئ من قمة القصر. ويرتطم جسده بالأرض، ارتطاما لا يمر ويدوي صوته وموقفه.

والله لو كان مسلم تحت قدمي ما دللت عليه!

ويرددها الأفق، إيذانا بثورة، وإعلانا بصخب، ونداء يرج الكوفة حتى يسد الأفق.

يا منصور أمت!

واجتمع من الخلق الكثير، وكذا دأب الثورة إذا ما تعاظم شأنها، وتبالغ أمرها، وذاع صيتها، صاخبة شديدة، تجتذب الناس من كل فج، مؤمنون، متملقون، يجتمعون ويتحدون في نسيج واحد.

ثورة، ثورة، تؤرق ليل الكوفة، تتسلل إلى عروق الرجال.

والنساء؟ خانعات هن، وجلات، يعتصرهن الخوف، يطلبن الدعة، ويرجون الأمن.

يؤثرن السلم ويقلبن وجوههن صوب الرغد.

يثبطن الجموع، ويغضضن الطرف عن الظلم.

لكن الصوت أعلى من كيدهن، أعظم أثرا، الثورة مشتعلة في الهشيم، وفي الجموع.

تطوف شوارع الكوفة بأن يا منصور أمت.

ودار ابن زياد خاوية، يرتعد فيها على كرسيه، ويؤمه أشراف الرجال! أغنياؤهم ووجهاؤهم للدقة!

الخطر اقترب، الثورة خطر، إن اقتربت ستقض مضاجعهم، وستمحو كل شيء!

وإن انتصرت؟ لن يصمد أمامها منهم أحد!

خذِّلوا عنه الناس! قالها إبليس بني أمية وتابعهم ووواليهم ابن زياد.

ولاح من بعيد لهم أمل.

خذلوا عنه الناس، ولكم من المال ألف وألف، ومن العز ما لا يتلف أبدا، ومن السلطة ملء كف وكف! وملء الذراع. خذلوا عنه الناس.

وابتدأ الخذلان.

وتعالى منهم الصوت بعد انقطاع وذهول.

منذرا بجيش يزيد، وجند يزيد، جيش يأتي الأرض ينقصها من أطرافها، لا يرحم الطفل ويقتل الولد.

يجتز الرقاب، ويمنع العطاء. ومن ذا قبل بمنع العطاء؟

وانطلق من النسوة نفر يطوفون بالجيش ينادون من مكان قريب.

انطلق. الناس يكفونك! الفتنة نائمة، أوتوقظها؟

إن لك أهلا ومالا، انطلق، وكل أولئك يكفوك!

وتفرق المدد، وتباعدت النصرة، ووقف هنالك مسلم في شوارع الكوفة وحيدا، متروكا! مخذولا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما فقدنا الثاني، وما بعده، إلا تنويعا وتكرارا على فقدنا الأول.

كنوع من التكرار الأبدي، دائرة لا تمل ولا تنقطع أبدا، من اختبر الفقد أدمنه، دخل سلساله. ولن ينجيه شيء، ولا أحد. ولو فقد نفسه، ولو فني.

من عرف الخذلان أحبه، أدمنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سلم مسلم إلى جند ابن زياد، وحيدا، يخوض الشوارع والطرق وحده، يحيقون به من كل صوب وحدب، ظهره للجدار، قوسه في يده يرميهم، ما رمي منهم أحدا إلا قتله!

وما ضرب بسيفه إلا روع أشدهم بأسا، تكالبوا عليه مددا، غالبوه عددا، ضاعفوا القبضة، وإن كانوا الأضعف جندا. والأكثر عددا!

مسلم وحده، بلا نصير، ويا منصور أمت خفت صوتها، لم تعد تدوي في الأفق، والثورة؟ انطفأ قبسها، تلاشى ضوؤها، وآوى كل امرئ منهم إلى زوجه!

واستبان الطريق، من نطق باسم الحسين ملاحق، بلا نصير.

ومن نهض لنصرته مقتول، فقيد.

وطال ليل الكوفة واشتدت وطأته، وغالبت الكثرة شجاعته، والخذلان (كدأبه) علقم.

أعمل فيهم مسلم وزاد، ما ترك حجرا في أرض الكوفة إلا رجمهم به، ولا شجرة إلا اقتطع من أغصانها آلة حرب، علاه الجهد، خالطه الغبار، وهبط عليه الليل، والليل ثقيل بلا قمر، ولا مؤنس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم لم يعد يرقب القمر منذ أمد؟ لم يبثه الأسرار؟ ويستودعه خزائنه؟

لم لم يعد يتابعه؟ أو يأمل في غد؟

اكتمل القمر في كبد السماء أم لا؟ سيان.

منذ أيام أمطرت الدنيا، علاه المطر، نظر إلى السماء بأسى وأطرق!

لم يجد ما يدعو به، لم يعد يأمل في شيء!

لا شيء يريده، ولا يريد شيئا.

لا يطلب أحدا، ولا أحد يطلبه.

إلا زينب.

ريحانة القلب، وملاذ الفؤاد.

حين رأى عيني زينب أبصر فيهما الحب، وأبحر في سوادهما بلا انتهاء.

وحين أبصرته أدركت عظمته، ووعت أن تتزوج عظيما.

عيناها قبلة، تزف الوصول، رهيفة رقيقة، ارتجفت بين يديه كالعصفور.

وتماوجت بين يديه مثلما لم تك أبدا.

قد شغفها حبا.

التقيا وكأنما انتظرا اللقيا منذ أمد بعيد.

التقيا كتائه يعود إلى بيته، كمهاجر يثوب إلى وطنه. بعد كثير ترحال.

أو كالطفل يؤوب إلى حضن أمه.

- لم أعرف الأمن إلا بين يديك يا حسين!

قالتها زينب وقد أشرقت عيناها، وألقت بنفسها بين يديه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ليل الكوفة وفي شوارعها مسلم، يقطع الأرض، يطلبه جند ابن زياد، ومن خلف ابن زياد يزيد، قابع في الشام يبث العيون، ينتظر الخبر، وقد آمن إلى أن بالعراق ابن سمية!

الصمت يقطعه نبح الكلاب، وصوت الدمار يحدثه مسلم، لم يبت أهل الكوفة ليلتهم في دعة!

وصوت مسلم يجوب الأفق منغصا عليهم سكون ليلهم. ونسوة المدينة اللواتي جبن

- انطلق، الناس يكفونك.

أدركوا، لن يكفيهم اليوم أحد.

وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى، يرقق الصوت، ويرسم الدعة.

- يا ابن العم! لا تقتل نفسك، إن القوم ليسوا بقاتليك.

- يا ابن العم! هون عليك الأمر، أسلم نفسك، واغنم حياتك.

ومسلم مرهق، متعب، ولاح من بعيد الأمن، زائفا، كاذبا، غير أنه آمن.

ورأى مسلم القشة قبيل الغرق! فتعلق!

وتراخى جسده، واستلم القوم سيفه، ولاح الخذلان، وأقطرت عيناه دمعة عصية!

هذا أول الغدر!

ورأى في أعينهم انتقاصا فصرخ في الآفاق.

- إنما أبكي الحسين! وآل الحسين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كربلاء -١٠ محرم سنة ٦١ هـ - ١٢ أكتوبر ٦٨٠ م:

هناك، عند الحافة، وقف الحر.

بالضبط بالضبط على الحافة، عند ملتقى الجيشين انتصب، يشرئب بعنقه، يطالع جيش يزيد، وخيل يزيد، ورجله.

يتأمل الأفق البعيد، ويفكر. ويعيد النظر.

يحاول أن يطل على أرض المعركة من بعيد، يقارن بين الجندين، هذا جيش بفرسان وخيل وعدد. وهذا الحسين، ومن حوله بعض الصحب.

يسأل من جديد، ويلح على عقله بالسؤال.

ويحك يا حر! منعت ابن بنت رسول الله بالأمس في هذا الموضع، وعطلته المسير لأجل قتله؟

يحاول أن يتدارك، يستوعب موقفا احتواه.

يرتجف ويخشى.

والتاريخ يقف ليدون، لا يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها، وغدا الجموع تسأل، ماذا فعل الحر؟

يقلبها في عقله، يتلجلج لسانه فلا يكاد يبين.

ود لو تماسك، لو قبض على نفسه المتباعدة، لو صرخ فيها استفيقي، أدركي الموقف وعِي الأمر.

- ويل لك يا حر، والله لو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك! مم ترتجف؟

- إليك عني! إنما أخير جنة أو نارا!

يحدق في عينيه الزائغتين ويمضي، يقرب وقع خطوات فرسه إلى جهة صحب الحسين، ثم يرجع جهة عمر بن سعد.

يدوي صوت الحر في الأفق.

- بربك يا عمر! أمقاتل أنت هذا الرجل حقا؟ ابن بنت رسول الله؟

يلفظها صحيحة النطق علها تستقيم في عقله، عله يعي.

وعمر يقولها جلية يتشبث فيها برباطة جأش ولو كانت زائفة.

- هذا أمر ابن زياد، ومن قبل أمر يزيد. أمير المؤمنين.

لعنك الله ولعن يزيد.

ود لو صرخ بها حتى تبلغ الأفق، يلكز فرسه الحائر من جديد.

لمح ابن سعد الحيرة في عينيه، لديه مثلها، ليس بهذا الصخب، لكنها موجودة، أذهبت جلها غواية ولاية الري.

يسكن عمر خواطره الخاصة، لا يعنيه ما يدون غدا عن ابن سعد.

قاتل ابن بنت رسول الله، يقلبها في عقله.

يستعيد القول الصارخ في أذنه.

(لا تقبل الدنيا كلها وتلقى الله بدم ابن بنت رسول الله!) (يا عمر، ميزان فيه دم الحسين ليس بخفيف عند الله!) - نعم يا حر!

يثقلها بعزمه، تردده، يثقلها كل قوته، وإن وهنت!

- نعم يا حر، إني مقاتله!

يتردد الصوت في ذهن الحر من جديد.

- ويحك يا حر! مالك ترتجف؟

يرددها في عقله، ويحكم، ويح عمر بن سعد، ويح ابن زياد، بل ويح يزيد على كرسيه، إنها جنة أو نار!

- يا حسين! ينادي بصوت يمزق سكون طويل، يتردد عاليا بين الجيشين! عاليا لا يلين، يوكله عزمه عله يقطع حيرته، يا حسين، يقطر صوته خزيا، يا ابن بنت رسول الله، يقلب بصره بين الجيشين يخير نفسه، يا حسين إني قد جعجعت بك عند هذا المكان، والله ما حسبت أن القوم مقاتليك، إن أردت إلا أن تمنحهم ما بغوا وتمضي لشأنك. أوترى لي من توبة؟

- نعم إن شاء الله.

وهل يرد الله توبة عائد؟

واستقر صوت الحسين في فؤاده، فلكز فرسه ومضى نحوه، لا يلوي على أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوجع، أكثر مشاعر البشر صدقا. الألم هو الذي لا يختلف عليه اثنان.

حين يطرقنا الوجع يتملك. لا يدع ما يسمح بغيره من مشاعر.

الألم يدفع دفعا إلى نبذ كل ما سواه، كل ما ليس ضروريا. والالتفاف حوله.

ويُفعل الاستغناء، والخوف. يأتيان تابعين أو لاحقين، سيان. غير أنهما يأتيان.

يُفعل الذاتي، ذاتي يقارب الجمعي، ويبلغه. ويفوقه.

حين يتركز الألم لا يدع موضعا لشيء. أنفسنا التي بين جنباتنا نقدمها قربانا حتى يرضى.

ننهار. وتساقط عنا سوءتنا، وتداعت نقاط ارتكازنا.

للأبد.

كان مرض زينب رهيفا، مثلها، خفيفا كخفتها.

كانت طيفا. كقطرة ندى رطبت قسوة حياته.

كانت حلما، قادما من مكان بعيد.

سبيلا يهدي الجنة. كانت جنته.

ود لو افتداها بماله، بعمره، ود لو جاد في سبيلها بروحه.

كانت طيفا صادقا وككل الأطياف الصادقة لم تمكث طويلا، فما أن استقر بها المقام إليه رحلت، وتركت في قلبه جرحا لا يندمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مفترق طرق كان. في كربلاء. ما بقي في الحجاز يقاسي لوعة الفقد. ولا قام بأمره بعث العراق.

حركوا ساكنا. ولا أقسى على الألم من الحركة بعد سكون. تستثيره. تستنزفه.

أنبتوا بذرة المجد وما رعوها حق رعايتها. لكن ليس الحسين بالغر، لقد أدرك قبلا الخذلان.

من أدرك الخذلان عرفه. وجد ريحه. وأدرك وقوعه ولو لم يقع!

اليوم يقف الحسين بكربلاء. يستدعي كربلاءات عدة سابقة وتالية.

يعاين الجمع، ولا مرد.

وينادي من القوم مناد، انزل على حكم زياد. ويجيء الصوت لا يتردد، أما هذه فدونها الموت!

حلقه جف. الحر يحيط به. ما أهون الحر اليوم إلى جوار محنته.

وما أيسر قسوة الصحراء تجاه ما قاسى من الفقد.

إنه يرى الصحب يلتفون حوله. أعياهم طول الطريق. أنهكتهم وحشته.

وما رأوا في الأفق من نصرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في كربلاء تتركز الشدة. حين منح الحسين لأهل الكوفة أمنا لم يكن أمنا كاملا. ما عاد لديه الأمن الكامل الذي يمنحه.

أن تأمن كاملا، وتمنح كاملا، ثم تؤتى من دبر. في هذا منتهى الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقف ها هنا، في موضع يليق به، كما يليق بالفرسان.

متشحا بسيفه، يأبى أن يبدأهم بقتال.

يرى مخايل الغدر، يتشممه، ويدرك منتهى الأمر. فلا يتحرك.

مستسلما استسلام فارس. خسر كل المعارك غير أن أبى خسران نفسه.

أُخذ الحسن غيلة بسقيا سم. انساب أمامه إلى حتفه. مكلوم. صامت لا يقدر على البوح.

يرى ما عاش لأجله من صون الدم يذهب هراء. وبنو أمية أرادوها ملكا عضودا لا رجعة فيه. ونقضا لكل العهود القديمة.

الحسين، ها هنا. في موضع يليق به. نفر بأهله وماله يبغي خلاصا. من زمان ليس له. وعصر لم يعد يعرف الرجال.

نصل السكين يلتمع في الأفق.

يراه بعين الخيال. وكما ينبغي للأشياء. يقترب من عنقه. يُفعل الذبح. ولا مرد عن الذبح.

من عاش كالحسين ما قضى بغير الذبح.

يراه فلا يتحرك. لا يولي هربا ولا جزعا.

مستسلما لا عن غضب أو سخط. ما به من قوة لاستدرار غضب.

ما بقي من قوة إلا للجعجعة بالحق عسى من سامع يسمع.

عسى من متلق يتلقى نداءاته الأبدية في الآفاق البعيدة.

- اقْتُلَوا يُوسُفَ أو اطّرَحُوهُ أرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ.

- لو لم أعجل لأخذت.

صوته يتردد في الأفق، أنتم في حل من الموت، اذهبوا في بسيط الأرض. إن القوم يريدونني.

يدرك تمام الإدراك أن لو بلغوا رأسه ما طلبوا بعده أحدا. ولا شيء.

بل نموت دونك. لا خذلان بعد اليوم يا حسين.

يستعيد ذكرى امتقاع وجه أخيه بالسم.

يتأمل الجموع من حوله.

يبدأ القتال فارسا لفارس. وفي جيشه مجتمع الفرسان.

ويجيء صوت من بعيد أن قد بلغ الغدر مبلغه. إنكم إن رميتموهم بالحجارة قتلتموهم.

ويجيء سهم من جيش يزيد ببدء القتال يتبعه صوت عمر مفتخرا: اشهدوا لي عند الأمير بأني أول من رمى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

روي فيما روي أن لما خرجت سرية عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب أولى سرايا النبي بعد الهجرة، ما تبارز القوم، غير أنهم رمى بعضهم بعضا بالسهام. ورمى سعد بن أبي وقاص أول رمية.

- ألا هل أتى رسول الله أني، حميت صحابتي بصدور نبلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتعالى صوت القتال. يبلغ الآفاق. الحسين يتابع الصحب يساقطون من حوله. ود لو قدم لهم طوق النجاة. لو بشرهم بالبشريات. يتواصون بينهم بأن موتوا دون هذا. تتحلق إشاراتهم نحو سيد شباب الجنة.

لا خذلان بعد اليوم يا حسين. لا خذلان.

يمضي الصبي من آل الحسين إلى حجره. إلى حضنه. يحاول أن يغمض عينيه الصغيرتين عن مرأى الدم. الرعب. والقتل.

يطلب الأمان لدى الحسين.

يتلقفه الحسين مذهولا، إذ انقض سهم صوب رقبته فأرداه ذبيحا.

الذبح. الذبح. شعار اليوم وغايته.

وشهادة الحسين ذبيحا. لا يليق بكربلاء قتلة غيرها.

اللهم انتقم. ينادي. يمزق الأفق صوته الزاعق. ليشهد الكون بأن الحسين ما قبل!

العطش يدركه. يرفع شربة ماء عله يبلغها فينزلون به سهم يصيب فمه.

يهريقوا ماءه إيذانا بإهراق دمه.

وحيدا يا حسين. وحيدا جدا. كما ينبغي للوحدة أن تكون. تنادي في الركب فلا يسمعك أحد. تطلب النصرة فما يلبي أحد.

يساقطون من حولك. ودون نحرك.

ويخوض الحسين معركته الأخيرة عطشا. يتأمل المشهد. ويدرك أن لا بديل عن الذبح. لا راد لقدر. ولا معقب لأمر الله.

ينادي الصوت بأن (اقتلوه)، أمر لا مرد له. تتعاوره الطعان.

يتابعهم بعيني طفل يدهش دهشته الأولى. ويود لو سأل. لم؟

لا أقسى من الذبح سوى أن تذبح دونما سبب. أو بالأحرى دون أن يخبروك لذلك سببا.

الضراب تنزل به في غير مقتل.

مع شدة بأسهم. وصلابة حربهم. إلا أن هناك في نفوسهم البغية نقطة مضيئة تأبى أن تنفذ الأمر.

اذبحوه! اقطعوا رأسه.

تنزل الضراب في غير مقتل.

ودهشة الطفل في عيني الحسين لا تفارقه.

والدم. دم ابن بنت رسول الله يسيل هناك. في كربلاء. على أرض العرب.

دم مسفوح بغير حق. وبلا ثمن!

هنا. يقف التاريخ ليفغر فاه؛ إذ تقدم أضل القوم نحو الحسين. وبهدوء تام اجتز رأسه.

سكتت الأصوات لوهلة. صمت الزمن. والمكان وما بينهما.

وهدأ الكون. كتم صرخته المدوية.

ليسمح لصوت الجموع الباغية. تجيء بالأقدام، تطأ جسد الحسين. تدهسه. تحطم البدن.

تكسر العظام. ومن بعيد. علت الخيل صدره. صدر الحسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- قتلوا ابن بنت نبيهم؟ ثم يأتون ليطلبوا شفاعته؟

- كتب على آل هذا البيت الفداء!

- وتعلموا أن يهيلوا التراب على خطاياهم. لا حاجة لهم بنا.

- لا بد لنا من أن نتواجد هنا. فوق كل دم أريق.

- ولم؟

- تلك إرادة الرب.

- بلا ذنب اقترفناه.

- ليبصرونا دوما ها هنا.

تساءل الغراب الصغير بنظراته، زاغت نظرة أبيه أوديف.

- ترانا حقا لم نقترف ذنبا؟

- الذنب ما خالف أمر الرب!

- ترانا لم نقترف جريمة القتل؟

- إن كان بأمر الرب فلا بأس.

- وهل يأمر الرب بالقتل؟

- ربما.

يتذكر الغراب الأب أوديف يوم قتل ابن آدم أخاه، لقد كذب كذبة بسيطة فيما رواه لابنه، كان الغراب المدفون صديقه يومئذ. شبا معا، وتعلما الطيران معا.

يومها كان لون الغراب أبيض ناصعا كالثلج. إلى أن صدر أمر الرب له بأن اقتل أخاك!

وتساءل حينها ذات التساؤل الذي يطرحه ابنه اليوم.

- وهل يأمر الرب بالقتل؟

وبعدها، أولم يسع إبراهيم ليقتل ابنه لأجل أمر الرب؟

لا زال يتذكر اندهاشة صديقه إذ هوى عليه فقتله. بلا سابق جريرة أو تحذير.

وعلى الرغم من أن الرب قد خوله بهكذا تكليف، فإن نظرة الذعر في عيني صديقه لم تفارقه.

يومها ندم، يومها استحال لونه أسود. ويومها عرف بين البشر كنذير شؤم.

- غرابان فآل حسن، غراب وحيد نذير شؤم؟

وقد كتبت عليه الوحدة ما بقي، وحدة مريرة يجترعها.

كذا قال للابن قبلا، ولم يفصل!

تبادلا نظرة متواطئة ثم انتقلا إلى بقعة أرض جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا تركتني؟!

يقلب الغراب الصغير وجهه في الأماكن من حوله ذاهلا.

يبصر أوديف بحيرة.

- هل تعتقد حقا أن الإله هو مصدر لكل تلك الدماء التي أغرقت تاريخ البشرية مثلما تزعم حكايتك؟

- لم تسع حكايتي لقول شيء!

قال أوديف بإباء!

- الحكايات لا يجدر بها هذا -تأمل اتساع عيني الصغير- أعني، لربما سعيت فقط لطرح بعض الأسئلة وإزالة الغبار من حولها، ولست بمسئول عما تبثه أسئلتي في بعض العقول المتحجرة!

- ظالما كان الرب! هذا ما سعيت لقوله!

- لم أسع لقول شيء، أخبرتك سلفا.

صمت أوديف ليتأمل للحظات قبل أن يتابع:

- دعني أسألك، هل تعتقد حقا أن المسيح قد مات على الصليب؟

اتسعت عينا الصغير هلعا!

تابع أوديف:

- أم تراه رفع إلى السماء؟

- أنت بصدد اختباري إذا؟

- كلا بالطبع، كل ما هنالك أنني أريد أن أصطحبك إلى قصة ممتعة جديدة!

لقد أرق هذا السؤال البشر لأكثر من ألفي سنة! هل صلب المسيح حقا مثلما زعم المسيحيون؟ أم رفع إلى السماء وفقا لزعم المسلمين؟

ذلك النوع من الأسئلة، الذي لم يحظ أبدا بإجابة قاطعة، بقدر ما يؤجج الصراع وتقوم لأجله الحروب وتسيل الدماء. لا دليل!

- هل تريد الاستدلال على صلب المسيح أو حتى رفعه؟

- أريد المعرفة!

التمعت عيناه.

- إجابة السؤال الذي أرق فكر أكبر ديانتين على سطح الأرض.

- أم تريد إثبات مسئولية الرب المطلقة عن دماء البشر؟

ابتسم أوديف بخبث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبت! لماذا تركتني؟!

ينادي بصوت مبحوح، لا يغادر حنجرته، أنى يبلغ الآفاق!

يتحجر الدمع في مقلتيه. ويختنق القول في صوته.

أبت! لماذا تركتني؟!

تحيط به الجموع، تحمله، غافلة عما ينهش صدره من ألم.

صوته يغيب في الأفق، يضيع بين هرج ومرج.

أماه! يوحنا الحبيب! أيا مجدلية! بطرس، هلا أجبتني قبل صياح الديك؟

لا مجيب.

لماذا تركتني؟ صوته مُحمل بالخذلان.

يقاسي لوعة الترك والفقد، يقاسي الوحدة! الألم.

يثقله ذنب لم يرتكبه. خطيئة لم يتدنس بها.

تفاحة ملعونة لم يتذوقها لسانه. أبت! لم تركتني؟

- إذا فقد قتلوه وصلبوه وما شبه لهم؟!

يتساءل الغراب بحيرة. غير أنه يرجع البصر كرتين إلى المصلوب.

نظرة الخاطئ في عينيه المثقلة بالذنب. نظرة الألم البشري الخالص. تراه يهوذا؟ الخائن الغادر؟ بكم بعت دم المسيح يا يهوذا؟

- أين الحقيقة؟

الحيرة تكبله. يهتز جسد الغراب، يرتجف.

المعرفة غالية الثمن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«غرابان فآل حسن، غراب وحيد نذير شؤم».

تلح الجملة على عقله، تتنازعه التفسيرات. ويتراءى غرابان اثنان، يحلقان من حول رأسه، تتماهى التفصيلات الكثيرة.

أصابع قدميه تداعب السحب. يبصر، يدبر، يقرر. وينشئ.

يشاهد التفاصيل الدقيقة راضيا عن سير الأحداث.

الأمور تجري مثلما خطط وقرر. مثلما أراد منذ زمن بعيد، قبيل التكوين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكوين

سعيا لولادة ثانية جاء المسيح قادما من الجليل إلى نهر الأردن يطلب العماد.

- إنما أنا محتاج أن أتعمد منك وأنت تأتي إليّ؟!

تساءل يوحنا. ملامحه خشنة، تنوء بالضجر، شعره أشعث، وقبضته قوية تحمل الماء.

- اسمح الآن. لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر.

وتعمد يسوع هناك عند نهر الأردن طالبا التطهر والقربى. بينما وقف يوحنا صادحا، صارخا: - «يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ. وَلاَ تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَدًا لإِبْرَاهِيمَ. وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. أَنا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ، وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ، وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أيام بعيدة كان الراهب زكريا يتقدم صوب المعبد بعيدا عن الصخب، أصابته القرعة، وله أن يدخل المعبد ليبخر حال خروج الجميع، مذهولا عن الموقف يتقدم، وتردد دواخله (يا رب) صامتة.

لا ينطقها لسانه غير أنها تختلط بكل ذرة من كيانه.

نداؤه خفي لا يبين ولا يسمعه أحد:

- رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا.

لأمد طويل تداولت بيوتات بني إسرائيل القول عن عقم اليصابات، عن حرمانها وزوجها الراهب زكريا الولد، وعن تطاول العمر وافتقاد النسل والذرية.

يبصرونهما بأعين الشفقة ويتلمظون.

لا يخفى الأمر عن نبي الله زكريا وزوجه. يشتاقان للولد. للذكر بعد الموت.

يبصر زكريا الأطفال ويحن إلى ابن من صلبه. يشغله تقادم عمره واشتعال الرأس شيبا.

حادثة مريم قد أنبتت في قلبه الأمل.

تتصل إليه بالقرابة إذ هي ابنة أخت اليصابات زوجته، عهدت بها أمها «حنة» إلى المعبد منذ زمن.

يتعهدها زكريا بالرعاية. يأتيها كل يوم بما تحتاجه من طعام. يعجب بورعها وتقواها وتدينها.

كان النهر يجري هادئا، والجميع غافل عما تعده الأيام غدا من نوازل.

لقد جرى على عيني زكريا من شأن الفتاة مريم تلك عجبا.

أجرت على لسانه -مما رأى من شأنها- من ذكر الله.

يدخل غرفتها شتاء ليجد من فاكهة الصيف، ويدخل صيفا ليجد من طعام الشتاء.

يرتسم على محياها الرضا والقبول.

يبتسم محياها، تشرق الدنيا. تفيض بابتسامتها على مخلوقات الدنيا فيطمئن الحيوان، والبشر والطير. ينمو الزهر.

تعيد ذكرى نذر أمها امرأة عمران إذ نذرت ما في بطنها محررا.

فلما وضعتها قالت:

- رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

نذرتها للمعبد، ومن يومها تكثر مريم العبادة والترتيل. تحتجب عن البشر لذكر الله.

تسير في البرية إذ تمثل لها الملك مبشرا. عظيمة هي في النساء. مبشرة بغلام.

اضطرب قلب الفتاة. أدركها الهلع وتوترت خطواتها.

- أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا؟!

أتى أمر الله. حملت الفتاة مريم بغير زوج ولا وطء. وانتبذت البشر بعيدا بعيدا. لا تخاطبهم ولا تبصرهم. تكثر الذكر. وتناجي الرب محملة بثقل ما ألمّ بها.

ابن بلا أب. وبين بني إسرائيل أهل الإفك والكذب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتابعت حركة الغرابين في المكان، يتبادلان الرأي فيما يبصران، يرتكنان إلى ركن قصي من الحدث.

- لما كان النص مقدسا، كان لزاما أن يحظى بما يستحقه من قداسة. ولا يأتيه ما سوى ذلك من دنس. أو تفاصيل لا تليق بوحي ذي صفة إلهية.

عُرفت الفتاة أبدا –حينها أو فيما دون بعدها في الكتب المقدسة أو غير المقدسة- بأنها بتول، عذراء، حد أن التصقت صفة العذرية بها أبدا. وعلى الرغم من ظهورها بعد ذلك في ملايين الصور، التي امتلكت دلالة مقدسة على الأرجح، إلا أن أصدقها صورتها في عينيه هو! التماعة عينيها النجلاوين حين مرآه.

ولأننا كأجمل ما نكون في عيون الأحبة فلقد اطمأنت لمرآها في عينيه.

وحوت عيناها كل تلك التفاصيل الدقيقة من تفصيلاته، وحركاته، وخلجاته أيضا.

أبصرها بعينيه الرقيقتين حين ذهب مع أسرته للصلاة في المعبد. وتساقط في حبها أبدا.

كانت صغيرة جدا، بريئة جدا، كما يليق بطفلة في أزمنة براءتها الأولى. منذورة للمعبد في سابقة فريدة، بالنسبة لفتاة.

ولقد تكفل برعايتها زكريا زوج أختها وفق القرعة، لكن ولما بدأ جسدها يكبر شيئا فشيئا، وبدا أن مفاتنها تستطلع لتظهر. خيف أن يأتيها الدم في تلك البقعة المباركة. فتقرر أن تُزف لأحد رجالات المعبد، وتحدد أن يتقرر مستقبلها وفق القرعة أيضا.

لم يغب عن أحد كم دفع يوسف النجار ذلك العجوز لأجل أن يدون اسمه على كل أقلام القرعة لأجل أن تصيبه لزاما!

لقد أغدق بمال على كل من حضر يومها. ادخره عبر سنوات عمر طويل بلا زوج ولا ولد.

ولأنه القدر. فلقد تقرر بما يشبه الأمر الإلهي أن تزف إلى يوسف النجار. من فاز بها كاملة -عدا القلب-. بلا رأي منها أو مشورة!

كان كل شيء مُعدا للفقد. والفقد كعادته علقم.

- هل تؤمن حقا بابن بلا أب؟

- هذا ما تردده الكتب المقدسة!

- أما من موضع في رأسك للعقل أو إعمال الفكر؟

تأمل الغراب أوديف مرآى الحيرة في عيني الصغير بخبث. والتمعت عيناه من جديد قبل أن يواصل الحكي مستندا على ذاكرته.

- لقد زفت إلى النجار حقا! شهد القوم من بني إسرائيل الزفاف. أكلوا اللحم وعبوا النبيذ في كروشهم الممتلئة حتى شبعوا. ثم آووا إلى بيوتهم موقنين أن قد ظفرت مريم –الصغيرة جدا حينها- بالسعادة.

لم يعبأ يوسف النجار بسؤالها أبدا عن هل رغبت في الزفاف أم لا. هل حظيت بالسعادة أم لا؟

لم يعبأ بأن يبصر نفسه في عينيها النجلاوين الصغيرتين، سعى فيما سعى أن تنزع ثيابها وعذريتها على عتبة داره تمهيدا لوطئها إيذانا بامتلاك جسدها خالصا.

وبأن تتحول البتول / العذراء وفقا لأصدق العبارات وأقدسها إلى عاهرة في ليلة واحدة.

ربما بسبب الظلمة لم يلمح الدمع في عينيها.

وأحصنت فرجها بتولا أبت أن تمس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا.

تتلمظ الشفاه. وتدير الألسنة حديث الإفك. من قبل نالت ألسنتهم الياصبات إذ لم تنجب. واليوم مريم إذ أنجبت. أقسموا ألا يرحموا من ألسنتهم أحدا!

تجوب سبل المدينة جريا حاملة الطفل.

يقلب بصره في الجموع. غافلا عما تقذف به ألسنتهم.

- زانية!

- عاهرة!

- بغي!

- من أين لك هذا الطفل يا مريم؟!

يتساءلون وتستدير أعينهم بغيا ويسيل لعابهم لهاثا.

ودوا حديثا يلغوا فيه. أرهقهم هيرودس ذلا. وطأ منهم الظهر وجنى المال. ومريم تدخل عليهم بطفل من غير أب.

يرجمونها بالحديث. يضيقون عليها الطريق. بعض الأطفال بدأوا في رشقها بالحجارة.

الجو خانق. ودموعها تقترب. غير أنها تشير بما يفهمون.

- إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا!

فصل الخطاب إذا!

من قبل صام الراهب زكريا عن القول إذ خرج من المعبد يوم أصابته القرعة، بعدها بثلاثة أيام حملت زوجته. تراه تكرارا؟! هل علم بفسوق ابنة أخت زوجته؟ لربما قتلها.

هل يصبرون على هذا الإفك ثلاثة أيام!

- يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا!

أشارت إليه؟ طفل الخطيئة والإثم! قاتلك الله!

- كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟!

تبادلوا النظرات، تسخر منهم، يهمون بالقرب. أيديهم مقبوضة. وجوههم قبيحة. رائحتهم كريهة. ومريم تهم بالبكاء. لن يتركوها حية فيما يبدو. ترى هل يطوفون بها شوارع المدينة؟

- يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا!

كانت تفكر. تهم بالصراخ. تنظر إلى طفلها الباكي. يمص أصابعه. يقلب بصره. ويبتسم!

هل ابتسم حقا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنتفض من نومها غارقة في الدمع.

تهز رأسها يمنة ويسرة، علها تفيق من الحلم أو تغرق فيه.

ليتهم يقتلونها! يرجمونها، فتصير نسيا منسيا.

فينتقل ذلك إليها حيال الصحوة فتموت.

يأتيها يوسف النجار كل ليلة راغبا أن يأتيها! فتغلق دونه قلبها ورجليها.

- لا تخشي شيئا!

- دعيني أمر وإن مرت بنو إسرائيل جميعا من قبل أو من بعد!

ويسير في بني إسرائيل شيخا عجوزا ذليلا كسيرا مطأطأ الرأس منزوع الكرامة حصنه معلق ومعركته خاسرة!

وتتدثر في ثوبها حيال النوم مخافة أن يأتيها إن غفت! ولا يغمض لها جفن إلا إن راح في النوم!

وكابوسها مقيم لا يبرح. طفل بلا أب!

تجول به طرقات بني إسرائيل يرجمونها بالتهم!

وتستيقظ مبللة الدمع! لم تنفذ حينها إلى مكنونات الحلم ولا إلى دلالته.

حتى عادت عيناه تطاردها.

ما أن يغادر النجار داره حتى يطرقها.

- اشتقت إليكِ يا مريم! شد ما اشتقت إليكِ!

ويتراقص القلب! وتغض الطرف مخافة رؤية العين! وتغلق منافذ الدار وأنى لمنافذ القلب أن تُغلق؟! وقد استقر فيها أبدا فطاب له المقام.

- هل تعبدين ربا ينكر الحب يا فتاتي؟!

ودت لو قالت نعم! غير أن انسياب لفظة فتاتي إلى روحها له وقع السحر. ويهوي القلب وتتراقص العين!

- أوينالك هذا العجوز دوني؟!

- ما نال مني شيئا!

- كذبت!

تطرقها الكلمة!

- ما كذبت.

تقول بانكسار. تود لو أثبتت له!

- اذهب الآن لا يبصرك الملأ من بني إسرائيل!

- وإن! لا أخشاهم! إنما أخشى عليك وفيما عدا ذلك لانتزعتك من هذا العجوز انتزاعا!

ويمضي كسيرا ما ظفر منها بشيء! ويرجف قلبها طلبا لابن منه!

- وإن أنكره الملأ من بني إسرائيل!

وإن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- مباركة أنت في النساء يا مريم!

قلبها ينبض بالخوف، لقد تسلل إلى خدرها ما إن غاب يوسف في الأفق، ما كان لها أن تقاوم قبضة يديه على كفها، تسلل أصابعه إلى ثيابها ينتزعها برفق!

- مباركة أنت في النساء يا مريم!

يهمس بها في أذنيها.

- ولكن!

تعتريها الحيرة، تضرب أركانها.

- لا تخافي يا مريم! قد وجدتِ نعمةً عند الله.

- إن هذا لا يرضي الرب!

- وهل يرضيه الفراق؟!

- ويوسف!

- مهان هو بما نال ما ليس له، بئس شريعة بني اسرائيل ظالمة كريهة، و حق لم تبعها ان يهون.

ارتعدت

- لا تخافي يا مريم! ،قد وجدتِ نعمةً عند الله.

صوته يورثها طمأنينة وأمنًا

- و ها أنتِ ستحبلين و تلدين ابناً!

تتلقي كلماته كنبؤة ووعداً

- و تسمّينه يسوع.

تميد الارض

- هذا يكون عظيماً!

و علا في الكون الصوت، و كانما يستدعي القوم من بني اسرائيل شهود.

- و ابنَ العليّ يُدعى , ويعطيه الربّ الإله كرسيّ داود أبيه.

رائحا غاديا لا يهادن

- كفي ذكرا لاسم الرب في هكذا موضع!

- انما حق لاسم الرب ان يذكر ها هنا، فليشهد الرب

يتابع

- و يملك على بيت يعقوب إلى الأبد . و لا يكون لملكه نهاية!

- الروح القدس يحلّ عليك , و قوّة العليّ تظّللك . فلذلك أيضاً القدّوس المولود منكِ يُدعَى ابنَ الله.

بحركة متسارعة مضي، كالحلم، كالطيف، او كالروح القدس

بينما تزلزلت الأرض زلزالاً صاخبا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك جسد يوسف مضطربا. الحزن يعلوه. يأتيه الصوت من بعيد: - يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك، لأنّ الّذي حُبل به فيها هو من الروح القدس، فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوعا، لأنّه يخلص شعبه من خطاياهم!

يستيقظ، يبصر زوجه تغط في نوم عميق، عيناها مرتاحتان على غير عادتها. ولمح على ضوء القمر ما خيل إليه أنها مبتلة ربما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- من أين لكِ هذا الطفل يا مريم؟!

يحومون حولها من كل صوب، والغراب كذا يحوم، أوديف هناك حاضر يطلق نعيقا بغيضا. تروح روحها، لا تدري إلى أين تمضي؟

انتزعها على حين غرة، نال جسدها، وترك فيه ثمرته.

تقبضه بين أيديها.

يبصرونها و يتسائلون، تثير خيالاتهم المتعبة

يطلبون عيناها الوجلة المرتابة

يتخيلونها، يودون لو كانت لهم، لو قاربوها

- من اين لك هذا الطفل يا مريم؟

نتاج شيق، لا كنتاج اعمالهم بعد يوم عمل شاق

يحاصرونها بالأسئلة.

تعيد النظر إلى طفلها. يدمص أصابعه. يقلب بصره. ويبتسم!

هل ابتسم حقا؟!

تتساءل للمرة الألف!

تلمح انفراجة فمه. وتتسمع وهم معها إلى قوله. صمتت المدينة للحظات. التفتوا. وتسمعوا!

- إِنِّي عبداللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا!

وصمت بنو إسرائيل تماما. لقد تحققت البشارة فيما يبدو!

أو لربما هذا ما زعمته الكتب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صمت بنو إسرائيل غير أن أوديف لم يصمت.

ينطق صغيره فرحا:

- أجرى الله كلمه على لسان الرضيع.

- رضيع في المهد ويتكلم؟ أي خرق أصاب عقلك؟ أي لوثة أصابتك؟

- إنها معجزة الرب.

- فلتنتقل معي لتبصر وتشاهد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محمولة ومحملة بالوزر. ويسوع عائد من جبال الزيتون، الشمس تشرق من جبهته، والملأ من بني إسرائيل يحملونها حملا، تتلمظ شفاههم ويسيل لعابهم.

- قبضت خاطئة زانية! وموسى أوصى في شَريعتِهِ بِرَجْمِ أمثالِها، فماذا تَقولُ أنتَ؟!

ملامحهم تنطق بالخبث، يتغافل عنهم فيضيقون عليه الخناق!

- أجبنا ماذا تقول أنت؟ أم تنكر شريعة موسى؟
أطرق برأسه في الأرض ودمدم.
- مَنْ كانَ مِنكُم بِلا خَطيئَةٍ، فَليَرْمِها بأوّلِ حجَرٍ.
فتسمعوا قوله، وتراخت أيديهم، ما منعهم أن يكونوا مكانها إلا الحجب؟
وانفضوا عنه، فما رفع عينيه إلا ولم يكن أي منهم، وبقيت المرأة.
- أينَ هُم، يا امرأةُ أما حكَمَ علَيكِ أحدٌ مِنهُم؟
- لا، يا سيِّدي!
- وأنا لا أحكُمُ علَيكِ. اذهَبـي ولا تُخطِئي بَعدَ الآنَ!
تقافز الغراب الصغير جزلا:
- يا لسماحته!
- أوترى ذلك حقا؟
- أوترى خلاف ذلك؟
- هل أخطأت أنت من قبل.
- كلا! أبدا!
- إذا فلو كنت أحدهم لجاز لك أن تلقها بحجر وفق شريعته؟
أطرق الغراب صامتا قبل أن يسأل من جديد:
- غير أن ملامحها!
- اسمها مريم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لكن هذا زنى!
- لقد تزوجها!
- لا يحق له زواج زوجة أخيه!
ويهيم في الأرجاء مرددا:
- هذا زنى! هيرودس زانٍ لعين!

ويهيم يوحنا في الأرجاء يعرض بهيرودس وإثمه! وكأنما ينقص هيرودس إثم الزنى أصلا.

غاضبا ثائرا تنتفض عروقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد كان أوديف – وبشكل ما – واحدا بين الجموع الثائرة، لا يدري كيف اندمج في القصة لهذا الحد حتى صار واحدا منهم.

يمتلئ بالغضب على روما وقيصر، ويسير معهم صوب الهيكل، يجرون، يندفعون: - فلتسقط روما!

السير بين الجموع وإن أردى الهلكة غير أنه مريح نوعا، تدرك جيدا أن ما يصيبك –أيا كان ما يصيبك- إنما لن يصيبك وحدك!

الوحدة فقط -وأن تسير منفردا- هي ما يورث القلب خوفا!

الحق، والحق أقول لكم، لقد تسوروا الهيكل.

مرأى نسر روما يعلوه أحنقهم مثلما أحنق كل يهودي بيت المقدس.

كذا عمدوا إليه فأنزلوه غضبا، وسولت لهم أنفسهم أن قد أنزلوا مجد روما أرضا. وزلزلوا عروش قيصر.

وهلل الناس وإن لم يرتفع صوت بعضهم مخافة التبعة.

ووجد الفاعلون أنفسهم مقيدين إلى العقاب! والناس؟ هللوا أيضا. لسقوط الفوضوي المجرم! كذا دأبهم ما عُرف لهم غيره.

وحمل مثيرو الشغب على مداخل المدينة مرفوعين على الصليب.

على جانبي مداخل بيت المقدس صُلبوا ينزفون وحدتهم وغربتهم وغرابتهم!

ويرددون ميثاق الوحدة الذي ردده سبارتاكوس قبلا في روما.

يحنون رؤوسهم بعد الصلب ثمنا لكل «لا» قيلت لروما يوما، أولمن نزل منزلها.

اعترى أوديف شعور عميق بالألم، وانتفض جسده.

وبدأت أيام الهوان لدى بني إسرائيل فيما يبدو، كانت أيامهم كلها هونا، غير أن تلك الأيام القادمة كانت الأكثر هوانا!

وصدر مرسوم ملكي لا يرد أمره بقتل كل مولود ذكر لليهود في هذا العام!

- لرؤيا الملك طفلا يولد يأتي على عرشه؟

- تلك أساطير قديمة، حوتها الكتب وحكتها عن ميلاد كل ذوي الشأن، أوتقنع بذلك؟ أم هل ترى ملك روما قد زال بميلاد المسيح؟

إنما تلك أقوال وحكايا المستضعفين يستمرئون ضعفهم!

تلوكه ألسنتهم ليحتملوا الذل في قلوبهم.

الحق والحق أقول لك كان المرسوم بغية إذلال القوم. إمعانا في إذلالهم لئلا يتجرأ منهم أحد على إنزال رمز لروما فضلا عن الثورة ضدها.

وأدرك القوم الغاية، فاستسلموا، وهانوا. وهونوا على أنفسهم بأسطورة مخلص قد ولد يتعقبه هيرودس!

وقتها كان يسوع قد وُلد فعلا ولقد تناقلت بعض الألسن مولده، ولقد كان لزاما على يوسف أن يحميه إن كان قد آمن حقا برؤياه، كلنا نمتلك رؤيانا الخاصة، فقط ما ينقصنا أن نؤمن بها.

أن نؤمن أنها رؤيا ربانية لا بشرية أو أضغاث حلم.

كان لزاما على يوسف أن ينطلق وأسرته الصغيرة المقدسة إلى مكان بعيد عن أعين هيرودس والجنود.

وانطلقوا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد حلمت بكِ بالأمس، أعني في تلك اللحظات التي استسلمت عيني فيها للنوم بين ظلمة وطلوع شمس.

حلمت بكِ، أعني أنكِ قد حللت بتلك الظلمة فأنرتها بمرآكِ.

يساقط الظلام في حضرتك.

حضورك في ذاتي أبدي، لقد احتللتيني بكليتك.

بذلك الحضور الملائكي، بروعتك وطهرك. بإشراقة الشمس على جبهتك.

تحضرين، فيحضر القمر في جبينك، والملائك في ركبك. والحور تحيط بكِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكوين ثانِ

كان كل شيء معدا وممهدا لأصير كاهنا مثل زكريا زوج الخالة الياصبات. ذلك الذي أتاه الرب معجزة الولد في أراذل العمر. أو لنقل إن تلك كانت إرادة أمي.

كنت أتسلل من ورشة أبي كل حين، كان يصر أبدا على أن أتعلم النجارة حرفته.

- بهذا سوف تكسب قوتك غدا يا يسوع، بالكد. بالعرق، لا بقول متهتك كأقوال الكهان.

لقد أحببت تلك الطريقة التي يُشكل بها الخشب إلى بعضه البعض. وكيف يعالجه.

يداه خشنتان، دقيقتان، لا تلينان.

يقبض جيدا على المطرقة، ضربة، اثنتين. يستقيم رأس المسمار ومن ثم يغوص بعيدا حيث مستقره.

وتبدأ الأشكال في الظهور والتعبير عن نفسها رويدا رويدا في هذا العالم.

غير أن سرعان ما تتشابه الحركات معا وأشعر بالرتابة إذ لا يتشابه الأمر مع ما يحكيه الكاهن هناك عند الهيكل.

يتجمع الناس من كل حدب ويبدأ الكاهن في قص حكاية مدهشة.

- لا بد أن يحضر يسوع دروس العلم.

كانت تلك كلمات خالتي الياصبات التي حملتها أمي إلى أبي يوسف.

- جيل جديد لبني إسرائيل لا بد أن يمضي إلى معرفة دينه.

تردد أمي الكلمات، يبصرها أبي بحياد، يحبها حبا يائسا، كذا تنطق عيناه.

- لا بأس، فليذهب يسوع إلى الهيكل بعض ساعات من نهار، هذا ما لا يضير أحدا.

كان يصطحبني يوحنا، يمسك بيدي صوب دروس الكاهن الذي يحكي حكايا لا تنفد.

تمنيت دوما لو علمت مصدر ذلك النبع السري الذي يستقي منه الكاهن حكايته.

يحكي عن النبي يونان، ناء بحمل رسالته، وسخط على الرب أن لم يصدقه من قومه أحد.

ما أقسى أن تكون مكذبا وأنت تعلم مقدار صدقك.

حين سمعت تلك القصة أول مرة لم أفهم كيف له أن يظهر السخط على الرب.

كيف تسنى له أن يترك قومه دون أمر إلهي ويطلب الهرب، عساه يبلغ قوما آخرين مصدقين لحكايته عن وحي يتسلل إليه من الرب. فهرب يطلب المجد.

- أي مجد ذلك الذي يتأتى من الهرب؟!

علم الرب بفعلة نبيه يونان، أطلق قدره

حتى أدركه، قارب في قلب البحر.

موج عالٍ غاضب يحمل سخط الرب ارتفع بالقارب.

لا بد من التخفف.

وألقى القوم بعضا من حمولتهم طلبا للنجاة.

في ركن السفينة كان هناك تاجر يحمل هدايا لابنته الوحيدة التي كان قد غاب عنها شهرا، لم يعبأ بذكره أي من الكتب المقدسة ولم يرد في ما بين سطورها.

ولربما لم يعبأ أحد بأي وجه سيلتقي التاجر ابنته فارغ اليدين.

ما كان يعنيه أن يهدئ غضبته ويلقن النبي يونان درسا.

وتأكد النبي يونان من أن غضبة البحر بسببه حين استقر قرار الرجال على أن تخفيف حمل السفينة سيتأتى بإلقاء رجل!

ولما لم يتطوع أي منهم لتلك المهمة كان لزاما أن يلجأوا إلى القرعة.

تساءل يسوع دوما عن أن لما كان يونان نبيا يطلب خلاص البشر لم لم يخلصهم بالتطوع ابتداء؟!

لقد كان خلاصا يسيرا واضحا لا لبس فيه. سيشهد له به أبدا. لا خلاصا رمزيا كخلاص الأنبياء!

ترى لو كان يسوع مكانه أكان قدم نفسه فداء؟!

غير أنه خمن أن الرجل قد انشغل بكيف ستتحقق إرادة الرب فيه واستسلم لها كليا!

وسرعان ما أصابته القرعة وألقي به قبل أن يصدر أي اعتراض في غياهب البحر.

إلى غياهب الظلمات راح لأنه، ولأنه فقط، أراد أن يفلت من قبضة الرب، أن يفلت مما أريد به من قدر. دون أن يدرك أنه بشكل أو بآخر قد غير مما أراده الرب. فلو كان قد اتبع إرادته في كل ما قام به من فعل فما مبرر غضبته تلك؟

- لا مفر من قدره.

كذا ردد الكاهن على مسامعهم. أخبرهم كذا عن حوت قد أحاط يونان بعنايته. وحفظه في معدته أمدا بلا هضم.

تساءل يسوع هل بإمكانه إن أكل خروفه المفضل يوما أن يمنع معدته عن هضمه؟!

تساءل وتساءل. آلاف التساؤلات يضج بها عقله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أنت سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.

نادى النبي يونان بذلك في أول اعتراف تحت الضغط مدون ومثبت.

ولولا إقراره بذلك في حضرة الرب وما لزمه ذلك الإقرار والاعتراف لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ!

ولتعرض حتما لعصارته الهاضمة.

كذا ما تؤكد الكتب وفق الرواية الرسمية الوحيدة!

لقد لُفظ يونان بعدها إلى الشاطئ عاريا، مثلما لُفظ من قبل آدم من الجنة.

لُفظ ولقد ألهبته جروح جسده وتقرحاتها، لولا أن ظللت عليه يد الرب الرحيم بنبتة يقطين. وانتظر جسده طويلا لحين إنبات اليقطينة وتظليلها على جسده. ومداواة جروحه. فلقد اكتشف الكون للحظة أنه كان لزاما أن يتبع قوانينه ونواميسه الأبدية بعيدا عن لا منطقية لفظ حوت لإنسان حيا!

وأعلن يونان الانهزام أخيرا، أمام إرادة الرب. وقدرته، وتسليمه المطلق لفعل السفينة والبحر واليقطين وعصارة الحوت الهاضمة كذلك.

أعلن انهزامه في معركة محسومة سلفا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أبي لا يريدني أن أحضر إلى المعبد!

- هذا خير لك!

- أظهر في البدء تململا، ثم بدأ في إعلانها صريحة، أريده نجارا، لا كاهنا.

- هذا خير لك!

- لكن أباك كاهن يا يوحنا!

هذا ما صارحت به يوحنا غاضبا، لا يهوى اللعب، ويلتجئ بالمحراب ويتعبد.

أطالبه بمشاركتي اللعب فيقول ما للعب خلقنا!

- هل خلقنا للعبادات الموجهة للرب فحسب؟

- أنا أمهد الطريق!

- طريق بني إسرائيل!

- بنو إسرائيل غافلون، تملك منهم عدوهم! وأنا تملكت مني الحيرة.

أبي يريدني نجارا، خالتي تريدني كاهنا، وأمي تبصرني وتهيم تذكر ذكرى بعيدة.

- هل حقا تريد أن تصير كاهنا؟!

- قطعا! تعجبني حكايا الكتاب المقدس!

- لكن الكهانة ليست في الكتاب المقدس وحسب!

- ماذا إذا؟!

- اتبعني!

ولحقت به.

كان الليل قد بدا يرخي سدله، وبدأ القوم من بني إسرائيل في العودة إلى ديارهم.

الشوارع فارغة ومن بعيد يلوح ضوء المعبد. بدأ القوم في إشعال مصابيحه. التي يسارع بنو إسرائيل للدفع لأجل أن تظل مضيئة أبدا!

لم أكن لأعلم أن بالإمكان وباستدارة بسيطة مدروسة حول المعبد رؤية غرفة الكاهن الأكبر عبر خصاص دقيق يطل على مضجعه.

كان جالسا في ترفع وكسل بعد يوم طويل.

بينما زعق صوته في ضجر:

- يا مريم!

وجاءت مريم، صغيرة جدا، ألحقت بالدير من مجدلة، جميلة كنهر جارٍ، عرفتها في إحدى دروس المعبد وسعيت أن أعرف عنها أكثر.

وارتاحت نفسي حين علمت أنها منذورة للمعبد الكبير ذاته، أي أنها ستكون هناك في كل مرة ألج فيها تلك البقعة المحببة إلى نفسي.

لم يكن يدور بخلدي ما سيحدث بعدها.

كان الكاهن الأكبر قد بدأ في تجريد الصغيرة من ثيابها قطعة قطعة، وقد أبصرت على جسدها الغض ملامح الانتهاك. والرعب وقد ارتسم على محياها. لم يبال بتوسلات عينيها الباكية التي تضمر خوفا.

الأمر ينبئ بوضوح أن تلك ليست مرتهما الأولى.

أردت أن أصرخ لولا أن كتم يوحنا صوتي بكف يده وبنظرة مزلزلة من وجهه.

بينما يات الكاهن فعلته التي لم تستمر طويلا. تاركا الصغيرة منتهكة، منهكة، خائفة.

آهة ثائرة أفلتت من شفتي بينما أبصرت عيني يوحنا ثابتتين لا تطرقان.

- هذا المعبد الذي يسعى والدي لضمك إليه، وهذا كاهنه الأكبر.

- لكن هل يعلم والدك بما يجري هنا؟

- إن لم يكن يعلم فلم سعى إلى تسليم والدتك إلى أبيك بسرعة؟

لئلا يدنس عذريتها أحد هؤلاء، لا طاقة لها بهم هؤلاء الملاعين!

- لا طاقة لأحد بهم، يرتكنون إلى ركن ركين، يرتكنون لاسم الرب!

تحدث يوحنا كثيرا غير أني لم ألتفت لقوله، ما شغلني هو مرآي الدمع في عيني الصغيرة، حتى لقد خيل إليّ أنها تستنجد بي. وبأني خذلتها!

- أما حكَمَ علَيكِ أحدٌ مِنهُم؟

- لا!

- وأنا لا أحكُمُ علَيكِ.

بالأمس حلمت بكِ يا مريم، بالأمس حلمت بكِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت عيناها البريئتان المستغيثتان تطارداني أينما حللت بعد ذلك.

لم أستطع إتمام ما أمرني أبي بإنجازه. مع تكرار الأخطاء تركت المطرقة:

- سأذهب إلى المعبد.

انصرفت سراعا قبل أن أستمع إلى رده عالما بأنه يرمقني بنظرات حارقة.

لا يستطيع أن يرفض ذهابي إلى المعبد، وإلا شكوته لأمي، لا قبل له بغضبها. يظل أبدا حاملا لذنب أنها لا تحبه. حاملا للذنب وخائفا. والخوف يورث ضعفا لا محالة. وقد لعبت دوما على وتر ضعفه.

خطواتي متثاقلة وكأنما حملت بوزر الكون كله. ربما التقيتها هناك!

كيف سأواجه عينيها؟ هل بوسعي أن أنقض على كبير الكهان لأقتله؟

قادتني الخطى إلى طرق نائية في المدينة.

منزل متفرد أبصرته عيناي. استدرت حوله حتى بلغت خصاص نافذة. فنظرت، ما أشبه اليوم بالأمس!

انتفض قلبي حين رأيت الطفلة!

ملائكية ساحرة والشيخ ينزع عنها ثوبها. يمد يده!

ضاقت أنفاسي وتتابعت دقات قلبي. كانت عيناها تشي بالخوف.

إلا أن يديه كانتا تتحركان ببطء.

تسمرت في مكاني بينما تحرك الشيخ نحو ركن في الغرفة تراصت عليه بعض الزجاجات، التقط قنينة صغيرة وعبأها من زجاجاته تلك. قبل أن يدفع بها إلى امرأة ظهرت في مجال رؤيتي.

- لتتناول منها مقدارا كل صباح قبل أن يمس جوفها طعام.

انصرفت المرأة مصطحبة الطفلة، هممت بالانصراف غير أن الصوت اخترقني!

- تعال إليّ! أقبل يا فتى!

وعبر الخصاص لمحت نظرات الشيخ محدقة بي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكى لي الشيخ عن كيف أبصرني.

- بقلبي وحدسي يا بني!

أخبرني عن عمله:

- أطبب القوم من بني إسرائيل.

- بالمعبد كاهن يفعل شيئا مماثلا، يقرأ على القوم كلمات من الكتاب المقدس.

لمحت ابتسامة متعاطفة على محياه.

- لتفهم مقصدي يا صغير. أشخص علاتهم وأمنحهم عقاقير تناسبهم. أحضرها وأستخلصها بنفسي.

أبصرت أعشابه وعقاقيره تلك. وبعض الأوراق التي خطها.

- تفعل فعل الرومان الكفار؟

- وما شأن طبهم بالكفر؟

هم يسوع بأن يجيبه بكلام الكاهن، تذكر مريم وما فعل بها كبير الكهنة.

قلب الأمر في عقله، يعري الفتاة ويداوي ألمها، لربما تمكن طبه من مداواة مريم كذلك. حتما تأذت وتعذبت. أو لربما علمني مما علم لأطببها أنا!

- هل لك أن تعلمني أيها الشيخ كيف تفعل ذلك؟

- هل أنت جاد يا بني في رغبتك تلك؟

- أسرتني فكرة أن تخفف أوجاع الناس بعيدا عن المعبد!

- لتسمع يا بني، أنا شيخ كبير، قد بلغ بي العمر أرذله. ولقد حان أن ينتقل هذا العلم إلى جيل جديد وإلا دفن معي! فلتعاهدني على أن تقصدني كل يوم ساعة أو بعض ساعة أعلمك مما أعلم!

- ولكن إن سألني أبي لم تأخرت؟ والكاهن أيضا سيسألني!

- إن سألك أبوك فقل حبسني الكاهن، وإن سألك الكاهن قل حبسني أبي!

- نعم إذا!

وتعاهدا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علمني كيف أخلط العقاقير معا بمقدار لأصنع دواء شافيا.

علمني كيف أخلق بيدي شرابا يطهر المعدة أو دهانا يجلي الجلد.

احتفظ في غرفة مظلمة من الدار بجثة أوشكت على التحلل رغم كل ما بُذل في معالجتها من جهد. وضح لي كيف أنشئ بنيان الإنسان. وتفصيلاته المتعددة.

- خلق الله الإنسان من طين ليكون خليفته على هذه الأرض!

اجتذبتني كلماته دوما، تختلف عن تهويمات الكهنة، أنتهل منها كل يوم مددا.

في اليوم التالي قبضت قبضة من طين، وسكبت عليها بعض الماء، شكلتها طيرا.

قلبته في يدي، وأعدت تشكيله من جديد، وهكذا مرات ومرات.

أنشئه ليكتمل، آمل كل مرة أن يتشكل كطير حقيقي، فلربما يطير.

كدت أن أيأس، حملته للمعلم:

- لتنظر ماذا صنعت يا معلم.

لمعت عيناه لوهلة، أبصرت الفخر في وجهه.

- عظيم، ما أشبهه بخلق الله الأول! مقاييسك دقيقة، تتعلم بسرعة!

انتقل إلى غرفته المظلمة، حمل بعض الزجاجات، وعالج تمثالي ببعض مواده، وأعاد تشكيل أجزاء من جديد.

- أرأيت! ما أشبهه بطائر حقيقي!

- غير أنه لا يطير! طائر لا يطير، أي عبثية تلك؟

- ما خلق من الطين لا يطير يا بني!

- أوليس الطير خلق من طين أيضا؟

- غير أن له روحا، نفخ فيه الرب من روحه. من يمتلك الروح يتمكن من الطيران، من التحليق!

- والبشر؟

- لو تحررت أرواحهم حقا كما الطير لازدحمت السماء من تحليقهم فيها.

أقلب كلماته في رأسي. تشغلني. أقلب الطين بين يدي. علني أقارب الروح ولو بعضها.

انغمست كليا حد أن غبت أياما عن المعبد. ولم أحرز تقدما في خطوات إعدادي ككاهن صالح .

كذلك أبي بدأ في التذمر لغياب تركيزي.

- أنت تلهو مع الصبية بدلا من ذهابك إلى المعبد!

حاصرني مرارا حتى انفجرت فيه:

- لن أكون نجارا أبدا!

صرخت في وجهه، انزوى غاضبا إلى ركن المنزل، صامتا. بينما تحركت هرولة صوب الباب وتناهى إلى مسامعي صوت أمي الحزينة: - لقد انفرط عقده.

سيلازمك حزن مقيم يا أماه!

ظللت هائما في الطرقات إلى أن أبصرت طائرا يحط ليتناول حبة ما.

تنازل عن طيرانه مختارا؟ لأجل الحاجة؟ بالحاجة نخلد إلى الأرض، إلى الطين، إلى أصل خلقنا.

قبضت قبضة من طين، وأضفت لها قطرات ماء بقنينة لا أزال أحفظها معي منذ أن أخبرني المعلم: - خلق الرب من الماء كل شيء حي!

- في الماء أسرار كثيرة لم أتوصل إلى جلها بعد.

وعيت تفاصيل الطائر، لم يخش قربي مثلما باقي مخلوقات الرب عدا البشر. للبشر تصرفات عجيبة دوما!

قلبت الطين بين يدي. بخفة وسرعة بدأت تشكيله. تدافعت إلى عقلي الأفكار.

- أنا وحيد للغاية.

لقد رحلت مريم عن المعبد، هربت للدقة. كان لزاما أن أمنع هذا، أو على الأقل أن أتوقعه. ولم تبق؟ لمزيد من الانتهاك؟

لاحقتها المسبة والاتهامات!

قالوا إنها تسيء لليهودية ولنا معشر اليهود.

لم يعن أحدهم بأن فعل الكاهن يسيء لليهودية كذلك.

لم يفكر أحدهم للحظة في سبب رحيلها. آه لو قابلتها ولو بمحض المصادفة!

لاعتذرت لها عن خذلاني إياها، عن كل هذا الثقل والألم الذي أعرف أنه يثقل قلبها الغض.

- أنت الآن أهل للمعالجة، لقد نقلت إليك جل ما أعلمه، هذه خلاصة معارفي عبر سنواتي الطويلة.

- الروح يا معلم! الدرس العصي، كيف أنفخ الروح؟

- لم أتعلمها بعد يا بني، ربما تتوصل إليها أنت، ربما لا.

- فما جدوى الطب والعلم إن كان بغياب الروح سيفنى كل شيء؟ إذا كان الجسد مصيره الخذلان، قبضة طين بلا ماء تجف وتتفتت.

بل وتتحلل ويقتات عليها الدود. أحتاج لأن أتعلم عن الروح يا معلم! أريد أن أخلد!

انصرفت مطرقا، متفكرا، إلى أن أبصرت في الطريق زحاما، اقتربت.

- إنها ميتة!

يردد القوم من بني إسرائيل.

- لقد فارقت الحياة.

أنازع الأجساد، أتسلل معتمدا على نحافة جسدي. لا حراك، صامتة كالقبر، أفكر، كقطعة طين تنتظر التحلل، تمضي للفناء.

أقبض على كفها الدقيقة، أبصر فيها رهافة مريم وملائكيتها.

- لا تمضي يا فتاة، لا زال الوقت باكرا، هناك طرق عدة تنتظرك، سبل لم تقطعيها، وأراض لم تطئيها، أزهار لم يستمتع بها أنفك، إشراقات شمس عديدة تنتظر.

لم يتسمع إليّ أحد قطعا، أو لربما حسبوني أدون ترتيلة ما.

- غير أن له روحا، نفخ فيه الرب من روحه. من يمتلك الروح يتمكن من الطيران، من التحليق!

أفكر في كلمات المعلم.

أولم ينفخ فيّ الرب من روحه؟ أولست أمتلك قبسا من روح الرب وكلمته؟

استحضرت كياني، وروحي. ليتني أبث تلك الفتاة من روحي، أمنحها من عمري.

ركزت عيني على جسدها، تأملت شفاهها اليابسة. وسط ذهول الجميع أطبقت شفتاي على شفتيها، ونفخت فيها علىّ أبثها بعضًا من أنفاسي.

كان الجنون هو ما يدفعني، رغبتي لفعل شيء. لإنقاذها، إنقاذ روح مريم فيها. البراءة في محياها.

كانت دوافعي أقوى من همهمات الغضب التي تصاعدت من حولي، لم ألتفت لها، استحضرت روحي ونفخت نفخة طويلة ومن ثم تركت شفتيها وسمعت صرخات الغضب من حولي لأنني دنست جسد المتوفاة وفق قولهم، تأملت جسدها مستجديا، لكن لا حراك. يبدو أنني في ورطة حقيقية إذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد ذاع صيت الراهب يوحنا حتى عم كل ركن، يعرض بالملك هيرودس وزوجته، بلا خوف. ويصرخ في الناس بالعماد.

يتعمدون على يديه، يتطهرون بالماء، وينذرهم الطاغية، وزوال الطاغية، ويؤكد لهم قرب زواله، وقرب زوال روما على يد مخلص قادم.

سيجيء ليقض ليالي الطاغوت وينقض ملكه.

حتى سمع به يهوذا، يأتيه، ويتذكر تاريخه القديم، ملاحق من قبل جند روما؛ إذ كان ممن عمدوا على نسرهم المعلق على الهيكل فنقضوه.

- إنما أنا أتبعك، أنت المخلص، تزلزل عرش هيرودس، تنبئ الناس بخطيئته، فلا يردك أحد.

- لست أنا يا يهوذا، أنا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ.

قبل ذلك بأعوام كان قد تعاهد هيرودس وهيروديا –فاتنة عصرها- على الزواج.

كان لا زال فتى غضا لم تعركه الحياة. يؤمن بالأحلام. وأخوه ملك متوج على عرشه.

شهدت خلواتهم قبلات محمومة ووعود بلقيا بلا انتهاء.

- حتى الموت يا هيروديا؟

- حتى الموت يا هيرودس.

وآمن قلبه بالحب، واستقر حتى سُر إلى الملك بحسن الجميلة هيروديا. بل ورآها من وراء حجاب فلامست منه القلب والفؤاد. واستقر في قلبه العشق. وطلبها فزفت إليه. ربما أسر له أحدهم بعلاقتها بأخيه، غير أن حسنها لا يوصف وما له من مرد.

ما كانت المدينة بأكملها لتستقر بوجود هيرودس وأخيه معا. نظر إليه نظرة قاتلة لو كان للنظرات أن تقتل! ومن ثم ارتحل.

استقر الحاكم على كرسيه غير أن سريره لم يستقر أبدا.

هيروديا الجميلة التي يحسده عليها كل من يراها لم تلن له. لم تكن له وإن نال منها الجسد.

ظلت متباعدة عنيدة عن الملك متقاربة قدر وسعها من الملك والسلطان ثمنا للجسد.

متوجة على عرشها تتلقى ثمنا بخسا لنبضات قلبها الموؤدة.

أنجبت سالومي. وريثة الملك والجمال.

بذات الجسد والقوام وتكرارا لأسطورة الحسن.

وعاد هيرودس طارقا المدينة محملا بالمال مدججا بالرجال.

والتقت عينه بهيروديا وتذكرا ما كان من حب.

أرادت هيروديا أن تستعيده غير أنه كان عصيا متباعدا. تقترب فيفر عنها وينكص.

تبصره فلا يطيل النظر.

ويجمع من حوله ذوي النفوذ والسلطان.

واستبانت هيروديا ما تخبئه الأيام.

تخترقه بجسدها. فينفذ عبقها الأنثوي إليه. يتراقص جسدها بين يديه. ويتراقص الشيطان. وتنتصر الخطيئة مختالة.

ويملك هيرودس من هيروديا سريرها.

لقد خاف الملك عودة أخيه لكن كان قد أدركه الكبر. تربص به الرجال.

وقضى الملك في ليلة قريبة فاعتلى هيرودس في ليلة الملكة والمملكة معا.

وأقيمت الأفراح والولائم. وأغدق هيرودس المال بلا انتهاء.

وثقلت بطون الناس والألسنة عن أن تنطق بما جرى. بما علمه الجميع.

غير أن صوت الراهب يوحنا بدد الصمت.

لم يطعم طعماهم وإنما شرب من ماء الأردن حتى ارتوى بالطهر.

يطرق الأرض سعيا، موتا، موتا. لعنة تحيط بكم جراء ما اقترفتم.

تأتي الأرض تنقصها عليكم. لا تترك بيتا ولا دارا ولا معبدا إلا دخلته. أزيحوا الطاغية! ارفعوا الظلم!

ما عجب له الناس أن هيرودس لم يتعرض ليوحنا أبدا.

- على يد هذا الراهب فناء ملكي وانقضاء أمري.

لا زال يذكر الزمن القديم.

يتذكر إذ جاءه عند نهر الأردن طالبا العماد. متخففا من ثقل أورثته إياه هيروديا. وحب هيروديا. يتطهر من حب أورثه هما وأضناه موتا.

لست على دينك أيها الراهب غير أني قد سمعت عنك. عن أنك تغسل الناس من ذنوبهم. تطهرهم. تحمل عنهم ما أرقهم وأثقل ظهورهم. اغسلني من الحب بماء أو برد.

يومها أبصر عيني يوحنا الصافيتين. واطمأن قلبه. قبل أن يرحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسائله هيروديا أن يكف لسان يوحنا عنها. فيتباعد.

يبصر جسد سالومي الغض يتفتح. في عبقها بقية من عبق هيروديا بالأمس. يفور جسده ويثور.

يود لو بلغ منها ما فات وانقضى. ما لم يلحقه من جسد حبيبته. يتابع تمايز الجسد واستدارته.

غنجها وتمايلاتها. ويميل قلبه ويهوي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لقد وضعت نفسك في ورطة حقيقية!

يخبرني المعلم.

- ماذا إن ثار عليك القوم؟ لداستك الأقدام ومزقتك أنيابهم إربا!

- لم أبغ إلا أن أنقذ الفتاة، أن أخلصها. أنقذها من براثن الموت.

أستحضر ذلك اليوم، لقد بثثتها من روحي –أو هكذا خيل لي–.

حين كاد القوم أن يصلوا إلي بأيديهم زفرت الفتاة، وتفتحت عيناها ببطء، أبصرتني فاطمأنت غير أنها أبصرت التجمهر حولها ففزعت، انتصبت على قدميها بهوان ثم انطلقت ركضا.

- لقد أحياها!

سمعت من يردد تلك الدعاوي ممن حضر، انتقل الخبر كالبرق في أنحاء المدينة، يسوع أحيا فتاة صغيرة بعد أن أدركها الموت، احتجت للتخفي، لم أجد قطعا غير بيت المعلم، بيت متطرف وبعيد عن العمران أنى يصلون إليه.

- أما وقد تكاثر من حولك مثل هذا القول في المدينة فسأنبئك بسر أخير.

أخذ بيدي حيث أخلاطه وسوائله وأعشابه الكثيرة، والتقط عشبة لم يحدثني عنها من قبل.

- أبصر، لتمررها تحت اللسان لبضع ثوان، فيها شفاء ولها فعل عظيم. ما بين موت مؤقت وحياة!

قبض بيدي على بعض الوريقات.

- لتدارسها الليلة جيدا ولتك درسك.

تأملت ملامحه المرهقة.

- لم لم تنقل علمك هذا لبني إسرائيل، تشركهم فيه وتعلمهم إياه.

- ستعلم حين يحين الوقت.

بدأت بشائر علمي حين وصل إلى أذني ما قيل بعدها، أني قد شوهدت مع الفتاة قبل الواقعة وأن ما حدث كان مخططا له سلفا.

لكن هذا لم يمنع تداول أقوال أخرى عن أني أمارس السحر.

أقوال أخرى أشد وقعا عن أني أحيي الموتى، من يحيي الموتى قادر على أن يشفي المرضى، بدأ البعض يردد.

يستوقفني أحدهم يطلب مني الشفاء. سرعان ما اعتزلت في داري، أقرض أوراق المعلم، أتساءل عن هل يخفي عني سرا آخر من علمه؟ تدهشني قدرات تلك النبتة التي زرعها، أباشر نموها بنفسي، أتعهدها بالعناية، وأمي تدهش لما أفعل، أقرأ أوراقا ليست من كتب المعبد، أباشر نبتة غريبة بالرعاية، أستخلص سوائل متباينة الألوان، لقد جننت تماما، أزعم أن هذا ما أيقنته، إلى أن جاء ذلك اليوم المشهود.

طلبت مني أن أصحبها إلى عرس جيران لنا، لا أحب ذلك النوع من التجمعات، فضلا عن أني أنتظر حتما تمتمات وهمهمات عن وجوب زواجي، فلقد بلغت السن اللائقة بالزواج بالنسبة ليهودي صالح! أو هكذا ما يجدر بي أن أكون. وفق رأيهم طبعا.

ذهبت رغما عني، هي أمي رغم كل شيء ويجب علي طاعتها في شأن يسير كهذا، تحللت من أوراقي ونبتاتي وعمل اجتهدت فيه أياما طويلة، هاتف أوحى إلي أن أحمل بعضا مما صنعت يداي في جيبي، كان العرس هادئا، أناس طيبون فقراء، أخبرتني أمي، ولذا سعى جمع وافر للاحتفال معهم، صب النبيذ كعادة القوم، تأخر الوقت، هممت بالانصراف لمتابعة نبتتي حين لمحت الذعر على ملامح أصحاب الدار.

- لا شيء يا سيد!

تخبرني الفتاة الصغيرة.

- ماذا حدث؟ هل لي بمعرفة سبب هذا الذعر؟

انتحت بي أمي وقد ظهر على محياها الخوف والقلق.

- لم يحتاطوا لحضور هذا العدد، قارب نبيذهم على النفاد، أنت تعلم ألسنة بني إسرائيل، لن ترحمهم ما بقوا. سيدعون أن هذا عرس شؤم!

أظهرت بعض التأثر.

- أفلا يمكن لبعض أخلاطك الغريبة أن تفعل شيئا لهولاء البؤساء؟

قلبت الأمر في عقلي.

- لم لا؟

فكرت لوهلة.

- املآ لي عدة أوان بالماء!

أسررت للخادم والصبية، نظرا إلي كمجنون نعم، غير أنهما سرعان ما نفذا ما أمرت به إثر انعدام الحيلة.

- ائتني بكأس من نبيذ.

كانت نظرة الخادم تنطق بأنه أبصر مجنونا ولا ريب.

في غفلة منه دسست قرصا في السائل وأبصرني أقلب الكأس.

كانت أمي ترقبني بتوتر من طرف خفي. لقد أدركت أن أهل البيت ستلاحقهم الفضيحة حتما.

بدأت في صب قطرات صغيرة من الكوب في أواني الماء. وأنا أتجاهل نظرات الارتياب في عيونهم. ربت على كتف الخادم برفق.

صب للناس النبيذ كيف شاؤوا. أوانيكم ملأى بنبيذ يكفي المدينة كلها.

لم أكن أتصور أن فعلا بسيطا لأحد أخلاط المعلم قادر على فعل كل هذا الصخب.

- ماذا عن فعل باقي الأخلاط؟ ماذا لو كان المعلم قد باح بكل هذا منذ زمن؟

لقد ذهل القوم حتما، ظلوا يعبون كؤوس النبيذ حتى ارتووا وملأوا كروشهم، بل لقد سكروا أيضا، وكلهم أجمعوا على جودة النبيذ. الخادم باح بأن: - هذا من فعل السيد.

وقص عليهم كيف فعلت بركتي التي حلت على كأس النبيذ حتى تضاعف مرات نبيذا بديعا معتقا غاب بالقوم عن الوعي.

أمي أبصرتني لأول مرة بفخر. شعرت أنها تريد أن تنطق هذا ولدي. وكأنما شعرت مرتها الأولى بجدوى صنيعي.

أنا نفسي شعرت بجدوى ما صنعت مرتي الأولى، وبأن سنواتي الماضية في التعلم لم تذهب هدرا، رغم بساطة صنيعي إلى جوار ما تعلمت. شعرت بانتشاءة. ولم أكن أعلم أن للمعلم رأيا آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لمثل هذا لم أسع لنشر معرفتي بين القوم من بني إسرائيل.

قال المعلم.

- الناس لا يحبون العلم، لا يركنون له، تأسرهم الخرافة. غارقون في الجهل حتى الثمالة.

لقد أدركت هذا في سني عمري المبكرة.

حاولت مرارا أن أجمع التلاميذ. أن أنقل لهم بعض علومي. لكنهم كانوا ينفضون عني ويذهبون إلى المعبد. تأسرهم خرافات الكهان وأساطيرهم.

- لكني أيضا أحب حكايا الكهان.

- لبعض الوقت ربما؟ لبعض الحكمة؟ لبعض التسلية أيضا.

لقد اتبع القوم من بني إسرائيل الكهان لسنين طويلة، والآن انظر إليهم. غارقون في الجهل، المرض ينخر أجسادهم الهشة. ويتغلغل في أرواحهم.

ابصر فعلك!

لقد حررتهم بالأمس من الفضيحة والعار. ماذا فعلوا؟ هل بحثوا وراء العلم الذي تحمله؟ أم جنحوا لتفسيرات السحر والخرافة والجهل؟

- لم يعلموا!

- الجهل خطيئة كبرى!

- أولا تقسو عليهم؟

- مع ما تحمله من علوم لم يعبؤوا إلا بأنفاس بثثتها في جوف محتضرة فأعدت انتظام أنفاسها، وبحبوب مُغيبة أودعتها خمرهم. يحبون أن تغيب عقولهم وأفئدتهم!

لقد ذاع خبرك في بني إسرائيل يا بني، وصار من العسير أن تتعلم المزيد مني، فإليك هذا آخر ما أعلمك إياه، إذا ما أردت أن تسوس القوم من بني إسرائيل فاحمل لهم الخرافة حملا مشوبة ببعض من علم لا يكاد يبين، أما إذا أردت أن تنجو ففر عنهم. وإذا ما رغبت في جماع الأمرين فاجمع بينهما.

لم يمنحني الفرصة لأضيف كلاما كثيرا، لم أفهم ما المانع بين أن يذيع خبري في القوم وبين أن أتعلم منه.

كلماته يتردد صداها في عقلي، أكاد أجن!

هل لم يعد مسموحا لي بتلقي علومه؟

كم من الأسرار ستفوتني؟ هل تستحق نظرات أمي الفخور أن أفقد علم المعلم للأبد؟

ليلتي التالية كانت مرعبة.

أتقلب في فراشي أفكر في كلماته!

كيف لي أن أسوس القوم؟ بل كيف لي أن أنجو؟

حين انبثاق الصبح انتفضت من سريري. البرد يدب في أوصالي. أكاد أتلمس تفاصيل اليوم الفائت حلما.

انطلقت إلى المعلم.

سأعتذر له عما صدر مني. لا زلت أرغب في الكثير من علومه. طرقت خطواتي المدينة في مسيرتي إليه عبر طرق أحفظها عن ظهر قلب، لاح لي البيت من بعيد. درت حوله، طرقت الباب منتظرا صوت المعلم مرحبا.

- تقدم يا صغيري.

توقعتها كعادة كل يوم.

لكنها تأخرت، انتفض قلبي بين ضلوعي، لربما لا تأتي أبدا؟

أعدت طرق الباب من جديد.

لا رد.

دفعت الباب مذعورا فانفتح.

تسمرت مكاني، كان المنزل فارغا تماما، ولجت مذعورا. هذا ما لا يكون.

- يا معلم.

صوتي يغلب عليه نبرة بكاء مكتوم. لا أثر لأحد. لا للمعلم ولا لوريقاته ولا لنبتاته الأثيرة، وكأنما كل شيء قد تبخر كالحلم.

فركت عيني عل الكابوس يبارحني. وصوتي المذعور يصرخ:

- يا معلم.

الأيام التالية كانت مريرة وقاسية. لا أغادر الفراش، مريضا بداء لا أعلمه! لقد قلبت المدينة رأسا على عقب، لم أدع أحدا إلا سألته عنه. المعلم الذي كان يسكن تلك الناحية، نظرات الناس مرتابة، أي معلم؟ أي ناحية؟ وكأنما لم يبصره غيري!

البعض عرف عن رجل عجوز يقطن ذلك المكان وحسب، لا يعرفون عنه شيئا آخر. على الأقل لم أجن بعد! لم أختلق القصة كلها إذا! فيما عدا ذلك لا يعرفه أحد.

أجلس إلى وريقاتي، تلك بقية باقية منه، لا أطيق النظر إليها، منعت نفسي مرات من تمزيقها إربا. هذا جنون، وهم يسيطر علي، ضيق يعصف بقلبي.

تلك الصلة الوحيدة التي تربطني بالرجل.

علمه الذي بين يدي وفي رأسي.

ونبتاته التي بث فيها من روحه!

- سأمارس الطب.

نظرات أمي لخصت الأمر، لقد عدتني مجنونا وانتهى الأمر. انفضاض أبي عن مجالستي، لم يظهر اعتراضا واحدا غير أن نظراته أنبأت بما يدور في رأسه، من أنني لا أمل مني يرتجى.

- أولا تعلم أن المعبد يحرم السحر؟

- الطب وليس السحر!

- فعل الكفار؟ وما الفارق؟ أتعتقد أن الشفاء بغير يد الرب؟ يحيي ويميت؟ يمرض ويشفي؟

أتعتقد أنك قادر على تحدي إرادته؟ على أنك بأخلاطك العجيبة أبلغ وأشد أثرا من تراتيل الكهنة؟

- أوتعتقد بأن الكهنة بتاركيك؟

أفلتت الكلمة من فم يوسف النجار أخيرا، مع ابتسامة ساخرة.

هذا مدار الأمر، سأنافس الكهنة، وأدركت منذ ذلك الحين أن المنافسة ستكون دموية، ولربما قاتلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليل، الظلمة، الخوف. والجوع. اجتمعوا بي.

العرق يبللني.

يأتيني الصوت من بعيد. وغراب يحلق. ينعق، الصوت ينفذ إلي

- أتزعم الشفاء؟ ادع بأن تصير الحجارة خبزا!

- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

أجيب بثقة. برغم ما يعتمل بقلبي من خوف وقلق.

أشعر وكأنما ارتفع. أريد الفرار.

- ألق بنفسك من شاهق ترفعك الملائكة!

- مكتوب ألا تجرب الرب إلهك!

- أعطيك الأرض جميعا مقابل أن تسجد لي؟

- اذهب يا شيطان! للرب إلهك تسجد وله وحده تعبد!

استيقظ مشوبا بالقلق والخوف.

اقلب جسدي علي الفراش، تسري النار في دمائي.

فقرات عمودي الفقري. ساقاي، ذراعاي. كتفاي ينوءان بالثقل.

انفاسي تتلاحق، اريد ان استبدل الوهج بدفء من نوع اخر. ان اروح بلا عودة.

تقول أمي:

- لا بد أن يتزوج.

- أنت الآن شاب ناضج تصلح لأن تنشئ بيتا.

يردد يوسف النجار.

- ليس جيدا أن يكون آدم وحده ([2]).

يقول الرب.

- أنا وحدي يا رباه.

أردد أنا في الليالي المظلمة عله يسمع. وحدي أقاسي الوحدة، الألم، اللوعة والشهوة.

وحدي أشتاق إلى جسد امرأة أبثها ناري.

ألتمس دفئها، أشاركها دواخلي.

تصدر عني آهة ملتهبة.

لا مناص.

أدس قدمي في خفي. أجوب طرقات المدينة الناعسة. جسدي ملتهب، لقد ضج بما قاساه من وهج السنوات الفائتة.

يدعونني لأتزوج؟

هل هذا مما يرضي الرب؟ أن ألتحم بامرأة أبديا لأجل ثوان معدودة؟ بعدها يرتاح جسدي ويهدأ ويطوب في واحة فكري أبدا؟

الاندماج التام مع امرأة للأبد؟ ذلك رعب مقيم ينزل بي.

هذا ما لا أقدر عليه!

أحب امرأة واحدة يلتحفها قلبي؟

لقد خلق الله لي قلبا يسع الدنيا بكليتها، فلم أحصره على واحدة؟

حمل ثقيل يثقلني.

أخطو تلك البقعة من المدينة مرتي الأولى تائها مرتابا.

أخشى أن يبصرني أحد فيعرفني، بوسعك أن تفعل كيف شئت شريطة ألا يعرفك أحد، هذه هي القاعدة الأهم لبني إسرائيل. غير أني أفكر، من جاء إلى هنا قد جاء لنفس غايتي.

ألج أقرب البيوت. أبصرها، امرأة بلغت من الكبر عتيا، تجلس قبالة الباب بجسد مترهل، تقرب مني الإناء فأنقدها أجرا بلا كثير كلام.

تشير إلى الغرفة القريبة، أدلف.

- لا تتأخر. هناك دوما متسع لزبون جديد.

أسمعها بلا التفات.

- لا ترهقها، لقد عملت كثيرا الليلة.

أستنبط من تقريعها أن ما دفعته لم يك كافيا، تلك مرتي الأولى، لا قبل لي بتلك الأشياء.

أطرق الباب برفق، أفتحه، ألج إلى الغرفة، ومن ثم أغلقها خلفي بأصابع مرتجفة.

وأبصر ماذا أعدت لي العجوز. جسد منتهك من فعل الليلة قطعا.

هناك على السرير عارية تتمدد. جسد مثير حتما.

رفعت عيني، التقيت بعينيها. وتحجرت عيني.

إنها هي. مريم. تبصرني بذات النظرة التي أبصرتني بها قبلا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سوف تذكر الكتب المقدسة وغير المقدسة فيما بعد خبر امرأة شقراء يتماوج شعرها البني المفعم ببعض صفرة، يشتعل ثائرا.

يظلل حاجباها الجميلان عينين متماهيتين كلية مع الزرقة.

أرق درجات الزرقة، وأكثرها صفاء.

شفتان مضرجتان بالحمرة، قد ممشوق، وجسد صارخ عنيف يضرب أعماق الرغبة. ولا يبالي.

سوف يتحدثون عن امرأة اختزلت في عينيها كل نساء الكون..

عيناها تنطقان بالبراءة برغم ما حاط بها من تفصيلات غارقة في الإثم.

لا زالتا ناطقتين بحديث الطفولة وخبرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لقد خسرت الكثير بسبب المعبد وبسبب كهنته!

بسبب تلك الدعاوي والوصايا التي لا يملون تكرارها على آذان القوم من بني إسرائيل.

بسبب كل هذا الامتهان. التشدق بالدين.

قالتها بينما أراحت رأسها على صدري منتشية. أصابعها تداعب جسدي بينما أتخلل بأصابعي الدقيقة خصلات شعرها. أهدئ روعها وأهدهد روحها القلقة.

- لقد آمن بنو إسرائيل بالمذلة. بالخضوع، والانحطاط.

اكتفوا بدعواهم أنهم شعب الله.

وبأن اعتلاء روما لهم هو أمر طارئ سرعان ما يزول بغير جهد. بغير تغيير لما طال أرواحهم من عطن.

- تراه يزول يا مخلص؟

هل قالتها بسخرية مثلما خيل لي؟

- سنن الله لا تتبدل.

- أراك تتلاعب باللفظ. لقد تعلمت الكثير من المعبد.

ارتجف جسدها.

- تبدين شهية.

قلتها بينما أبصر عينيها. ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة.

- رائحتك أنثوية مفعمة بالسحر. كزهرة برية.

قبضت على كتفها. واحتضنتها بين ذراعي.

لقد وجدت بين ذراعي مأوى تباعد عنها دهرا.

وجدت وطنا ومستقرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قدماها دقيقتان تخطوان الأرضية المخملية بخفر.

عيناها عسليتان. تجوبان القاعة بفضول طفل.

تخطو على أطراف الأصابع الصغيرة. ويداها تثيران عاصفة من الترقب.

تفرقان أدخنة البخور. وتشعلان التربص في عيني «هيرودس».

وهناك.

في منتصف القاعة بالضبط. يقبع الرأس شامخا –لا يزال– ربما يقطر دما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تفهم الجميلة سالومي يوما دعاوي الراهب يوحنا، يعمد الناس عند نهر الأردن، يطلبونه يسعون للتوبة، يسألون الخلاص، ثم يرددون قوله عن ظلم الملك هيرودس وعهر الملكة هيروديا بزواجها من أخي زوجها الراحل.

ينعتون هيروديا بالعهر ويبصرون سالومي –ابنتها– من أعلاها إلى أسفلها بلا جريرة.

- راهب متعصب ذميم كاره للحياة!

- هوني عليكِ سيدتى.

- يصرف الناس عن حياة يتمنى لو يحياها! لم لا يغدق عليه الملك هيرودس العطايا؟

تصمت المربية ولا تجيب.

- دعيني أبصره من طرف خفي.

- لا يجوز.

- دعيني أرى الكراهية في عينيه. والحقد يقطر من وجهه.

- لا يجوز يا مولاتي! هذا مما لا يجوز.

ترتعد رعبا مما ألم بسيدتها الصغيرة من أمر هذا الراهب يوحنا، تخشى محياه الوسيم على قلبها الغض. لكن سالومي تلح وتزيد في الإلحاح.

تود لو أبصرته وأبصرها، لربما أعلمه حسنها أي حرمان يعيشه.

بل ومن يدري لربما فتن بها. تدهشها الفكرة!

- هلا اصطحبتيني إلى جوار نهر الأردن حيث يعمد أولئك المؤمنين به؟

- هذا مما لا يجوز مولاتي. ستثور ثائرة مولاتي الملكة إن نحن فعلنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتماوج خصلات شعرها الأسود المائج بلون الليل. تنسدل على جسدها الأبيض اللدن.

تتسلل عبر الخصاص أنوار قمر حيي يضيء ليلتهم.

حاجبان استويا على عينين عسليتين، تلتمعان، تضيئان السبيل، وتعدان بليال ماجنة.

ولقد تلقى هيرودس الوعد وأدركه، عيناه لا تطرفان.

شفتاها مغرورقتان بالحمرة، وجنتاها متدفقتان بها.

عيناها مرتسمتان كوشم. ثغرها منفرج كانفراجة العطايا، كوعد أبدي.

يتراقص الجسد. يتماوج الشعر في سواده، يختلط ببياض الكتف، فيخفي كامل استدارته حينا.

ويشي به أحيانا.

جنية من نار في ليلة من الأحلام. وثمنها؟ ذلك الرأس القابع هناك في شموخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكشف عن مخ ساقها، مرمرية ساحرة، يستند الجسد على ساقين منتصبتين كأعمدة إغريقية من رخام.

جسدها ممشوق، مشتعل، كمنارة في خضم البحر راسخة، تهدي السبيل.

ويدور الجسد، ويدور رأس هيرودس، ويدور ملكه بل وتدور الدنيا.

يتمايل خصرها ومن حوله تتمايل الأرض.

وحول ردفيها تسطر أقاصيص الغواية.

ويقيم الشيطان اجتماعاته هناك.

الظهر منفرد يواصل التحليق، والكتفان تتبعان نهجهما.

وضوء النار يراقص نور القمر. تمتد القاعة بأرضيتها المخملية لتكتمل أركان الرقصة.

ووسط ظلمة الليل، وبين هذا كله قبع وحيدا، شامخا. الرأس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- راهب متعصب دميم؟! أهذا هو بربك؟

تقولها سالومي ثم تعلو ضحكتها العابثة!

بربك هلا أبصرتِ عينيه؟ كالشمس في عليائها تشرق. دافئة حانية في صبيحة شتوية.

شفتاه! تقطران عسلا لا قولا. يطرق القلب. كلا كلا..

لا يطرقه!

ينفذ إليه دون إطراق.

لا نفاذ الغزاة بل كدخول الفاتحين إلى أوطانهم بعد انتصار كاسح.

كفاه –وربي– تقبضان الدنيا.

جبهته كالقمر. كمنارة تهدي السبيل. وأنا في لجة حبه حائرة.

ضائعة أنا! وويلتاه!

تعيد سالومي ضحكتها العابثة مصحوبة ببكاء يمزق نياط القلوب.

يطرق الأرض سعيا، موتا، موتا. لعنة تحيط بكم جراء ما اقترفتم.

تأتي الأرض تنقصها عليكم. لا تترك بيتا ولا دارا ولا معبدا إلا دخلته. أزيحوا الطاغية! ارفعوا الظلم!

- آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ!

- أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ؟!

- لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ!

- إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ!

قلب الفتاة معلق بيوحنا.

لا تبصر سواه. اشتمل القلب واكتنف الفؤاد.

- يوحنا الجميل! حتام منك القرب والوصل؟

- حذار سيدتي!

تخطط وتكيد.

- هذا الراهب الحاقد حانق على قصر الملك!

يبصرها هيرودس ويشتهيها ولا ينطق. لا يقوى على النطق. هيروديا بحسنها تتمثل أمامه تكرارا. غير أن قلبها ليس معه!

- ائت به في السجن يوما أو بعض يوم ليدرك أن يد الملك تطاله وحتى يتعلم حسن القول!

هيرودس يتلجلج. تنازعه الأفكار. منتهى ملكه عند هذا الرجل.

- لم تصف زوجة الملك بالعهر؟

- لأنها عاهرة!

- كف عن قولك!

- كفوا أيديكم عن الناس!

- صه!

- لا والله حتى يكف الظلم. حتى يطير الطير حرا في كبد السماء. حتى يسير صاحب البشرى بين الناس رحمة.

- كف عن قولك! سل تعط!

- أسأل العدل. أسأل الخلاص.

- دعك عن هذه الأقاويل القديمة. سل لنفسك!

- لا نفع إذا! لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟!

- عمد الناس وعظهم وكف القول عن ذوي الملك!

- أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ، وَلكِنْ يَأْتِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ!

- أَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ السجن!

وحيدا يا يوحنا. وحيدا جدا تبتغي الخلاص!

بلا ناصر ولا نصير ولا مدد.

تختال سالومي وسط ممرات القصر بفستانها المكشوف. تكرارا لذكرى هيروديا فاتنة عصرها.

- دعوني أعبر لهذا الراهب أبصره.

- ما شأنك بمثله مولاتي؟ نؤدبه ويمضي. بذا أمر الحاكم.

تقترب بجسدها الغض وتصوب عينيها صوب قائد الحراس. وتصيب ضربتها.

- يوحنا اللطيف. حان وقت الجد.

وتبرق عيناها ببريق الشهوة.

الشيطان يتبدى في صورته الأقرب والأحب، الليلة تحديدا. وهنا بين كهنته وسدنة ملكة. يلوح في صورة الفاتنة سالومي. يتشكل في جسدها اللائح في بياض يحجب حجب الظلمة.

صامتة تلوح. تتلوى، وتختال. والراهب يحاول قدر الوسع أن يولي وجهه عنها.

يشتعل.

تولي وجهها. وتمضي. تاركة فتنة مؤججة مشتعلة.

في موضع اخر من القصر كانت هيروديا تئن، اثر محاولات رتيبة و متكررة من هيرودس متشبثا بفحولة انقضت

يفرغ منها ثم يدير ظهره

في الليلة التالية لاحت سالومي من جديد. بدأ جسدها من وراء الحجب في التراقص.

تراقص مثير لا يقدر عليه غيرها.

جسدها النضر ينطق بالشباب. وتمايلات جسدها تدفع الدم في جسد يوحنا المسكين.

يولي وجهه مبتعدا.

ينادي داخله يا رب!

ظل ما طال به بقاء بعيدا عن النساء وقربهن، يتقرب إلى الله بالتبتل.

غير أنه لا زال شابا.

جسد سالومي كوعد جميل، تخطو الغرفة فيعبرها نسمة هواء. تتكشف.

عيناها العسليتان الحلوتان تتقلبان في المكان. تعدان بارتدادة محببة الي اطوار الطفولة الاولي.

تناديا‌ه، تدعوانه للقاء. تخترق طاقتي انفه بعبق انثوي ساحر

غريق يقبض علي منجاه الاخير

قدماه تودان لو تخذلانه، ما اشهي الخذلان

يميل من ثقله، يتحرر، يندفع.

ويبدأ في الذوبان. واستيقظ ولقد دنسته الأحلام.

كانت عيناها تخترقانه من رأسه حتى أخمصه.

فتى شاب. عيناه غارقتان في النوم. حاجباه كثان استويا. ولحيته تستطيل. كان في مظهره ما يوحي بالبراءة والدعة.

لا يوحي بصوته الجهوري الذي قض ملك هيرودس من أقصى الأرض إلى أقصاها.

بدأت بتحسس قدميه اللتين طالما عمدتا الناس عند نهر الأردن.

ليته يسمح لها بالانكفاء على قدميه تقبلهما.

أفتديك بروحي أيا يوحنا اللطيف.

بدأت في الاقتراب محاولة مس شفاهه بشفاها.

تحرك مستيقظا فزعا.

- ويحك! ما جاء بك هنا؟

- يوحنا اللطيف! اقترب. لا تخش القرب!

- إليكِ عني!

- لا تخف يا يوحنا. جئت طامعة في قبلة من ثغرك الجميل.

- مَعَاذَ اللَّهِ!

- أوتستعيذ مني؟!

- ومن نسلك أجمعين. إليكِ عني يا ابنة البغي!

اخترقتها كلمته. مزقت دواخلها. اقتربت تريد مسه غير أنه دفعها بكفه.

- أنا أحبك!

حول رأسه إلى الجهة الأخرى زاهدا عن ردائها الحريري الفاضح ذي الأوشحة.

كان يقاوم رغبته ودواخله تصرخ!

- نلني يا يوحنا، أنا ذا بين يديك!

نظر إليها بريبة!

- ابنة هيروديا فاتنة عصرها. سالومي الجميلة التي يتمناها كل الرجال.

- إلا يوحنا!

- أولست رجلا؟

قالتها هازئة.

- لا شغل لي بشواغلكم!

- مشغول أنت بالتعميد! الصراخ في الناس بالتوبة. تراهم أجابوك؟ يتعمدون، يتسمعون سمومك التي تبثها بشأن هيرودس وملكه ثم يأتون للطعمى في هذا القصر. يبغون صلاة يوحنا وطعام هيرودس أيها الراهب! وليتك تقبض جراء هذا ثمنا!

- مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّه!

- وربك ما رأيه في شأن بني إسرائيل؟! في هيرودس؟!

- هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ!

- ومقتل أبي؟!

صمت يوحنا.

- ما رأي ربك في مقتل أبي؟ أم ستصمت مثلما صمت.

- مَعَاذَ اللَّهِ!

- ما أراه إلا راضيا، قانعا، مباركا!

- اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ!

قالها يوحنا خاشعا بينما تعالى صوت سالومي.

- حتام أيها الراهب؟ وأنت؟ تردد بين الناس كلماتك عن العاهرة! أنت أيها اللطيف يوحنا ماذا فعلت؟

- وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. أَنا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ، وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ، وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ.

- كف عن قولك هذا بربك. دعهم أنت فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وهلم إلي.

اقتربت منه ثائرة فغشيه عبقها بينما بدأت في حل الأوشحة. أسندت كفيها على كتفه القوية. واقتربت بشفتيها غير أنه اندفع متسارعا فسقطت. اغرورقت عيناها بالدموع وهي تبصره بسخط!

- أيها الراهب المتعصب الذميم.

كان بصره مبتعدا عن مفاتنها.

- ما شأنك بكل هذا! ما أغناك عن هذا كله! قادم بعدك وبشارات تحمل أصوات الأساطير. وترفع لا تقبض عنه ثمنا. أيها الأحمق!

نقل بصره فيها مستهينا فانفجرت صارخة.

- بين يديك سالومي أيها الأحمق! فلتمض معي ولتبصر هيرودس. عيناه تخترقان جسدي حين التفت. يحفظ تفاصيلي ويشتهيني. هذا العجوز الخرف. ما كفاه ما نال من ملك أبي وزوجه. وأنا آتيك طائعة فتأباني! هلم إلي أيها التعس!

- مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ!

كانت نفسه تصارخه، وصوت سالومي يهز أرجاء الغرفة، يتثبث ببقية باقية من يقينه.

- وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ!

بدأ جسدها يهتز وهي تحل ما بقي من أوشحة. تبدت فتنتها. بينما خبأ عينيه بباطني ذراعيه منتحبا في ركن الغرفة. كفت سالومي عن محاولة إغوائه. أدركت ألا سبيل. فاكتفت برقصة حزينة بغير نغم ولا لحن.

اكتفت بالتلوي بجسدها كما تلوت من دواخلها، بينما يوحنا ينتحب غافلا عن نظرة حاقدة طرقته بها ثم مضت. وقد تكشفت دواخلها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هيرودس بين محظياته، تدور أجسادهن، وتدور الرؤوس!

بينما تمر سالومي بجسد فاتن مكشوف. بارز فيه ما غطى من تفاصيل الجسد.

- هلا اقتربت من مجلسي سالومي الحسناء؟!

تبصره نظرة مائعة بين الصد والدلال، وتعض على شفتيها وتمضي، مشعلة النار في قلبه.

- أما اختارت لي الحياة غير هذا العجوز الخرف محبا؟

تبصر جسدها في المرآة، تستدير. تستوي.

- سالومي، جميلة جميلات عصرها، فاتنة الكون. يكون قسطها ذلك العجوز؟ ذاك الذي يساقط البول من حوله حين قضاء حاجته؟ بينما يفر منها هذا الراهب المتعفف؟

- أيا اللطيف يوحنا. مع كل ما لحق بي منك لا قبل لي بكراهيتك. لازال القلب ينبض بحبك. لا زال الجسد يشتهيك.

غير أن نار أنوثتها تغلي جراء الرفض. لا بد من الثأر. من الانتقام.

- لن أقر إلا برأسك بدلا. بقبلة ماجنة من شفتيك.

يتراقص جسدها بحضرة كبيرة الراقصات فتنبهر الأخيرة من تناسق الجسد. من تتابع الحسن. وتطير الأنباء إلى أذني هيرودس عن رقص سالومي. بل ويشتعل القصر بخبرها.

يرتج جسده، ويحلم ويؤمل.

- لم الصد سالومي الجميلة؟

- لا يليق بالملك أن يخترق مخادع العذراوات!

- أنساني حسنك ما يليق! يليق بمثلك المجد غير ألا مثلك أحد.

- وجودك هنا مولاي غير جائز، لو بلغ الأمر أمي هيروديا لما انتهى الأمر على خير! ستشعل الدنيا ضجيجا.

- يليق بكِ الملك!

- الملك على عرشه والملكة تدير ملكها.

- أنتِ أولى بهذا منها.

- أوتقتل أمي مثلما قتلت أبي؟

- من أخبرك بهذا الخرف؟

- المدينة من أقصاها إلى أقصاها تردد هكذا قول.

- لا يجرؤون.

- الراهب يوحنا يجرؤ!

- قاتله الله!

- أويعجز أن يقاتله الملك؟

يتأملها متحسرا.

- إليك عن شؤون الملك وارقصي للملك رقصة.
- الأميرة سالومي تريدها راقصة؟
- حاشا.
- وفي الخفاء كأمثال العاهرات؟
- لك ما شئت على رؤوس الأشهاد! يليق بكِ الملك!
- والمملكة؟
- لك نصفها إن شئت.
- وإن عافتها نفسي؟
- لك من دونها ما تريدين وتشتهين.
- نعم القول!
- أوترقصين اليوم؟
- ربما غدا.
- بل اليوم!
- أوبعد غد.
- أججت ناري سالومي الجميلة.
- لا يليق بالملك أن يظل هنا طوال الوقت.

مجلس الملك مكتظ. الراقصات يدرن الأجواء بالرقص والكؤوس.

مبعوثو الأقاليم والأمراء والخاصة في جمع مهيب.

بينما تخترق سالومي القاعة برداء ذي أوشحة سبع.

موشح بألوان طيف بالغة الأبهة والحسن.

تخطو بقدمها فينكشف مخ الساق من وراء اللحم.

تقترب فيتوهج جسدها بوهج الأنوثة.

تشتعل القاعة ويشتعل الملك.

وقد توقف العزف وتوقفت الراقصات بل ووقفت الأرض عن الدوران.

ناداها هيرودس متواطئا:

- هلا منحتينا رقصة؟

- لا يليق بسالومي الرقص.

- رقص كما يليق بالملكات!

- لست ملكة!

- لك نصف مملكتي.

- لا حاجة لي في الملك.

- لك ما شئت!

- أرى الملك سخيا هذا المساء.

قالتها ودارت عيناها في الجمع المتلهف.

- فما الضامن؟ إن عاد الملك عن قوله؟

- الجمع شهود.

- اقبلي. ما تأتي المرء هكذا فرصة إلا مرة في كل جيل.

قالها أحد الحاضرين. وتعلقت العيون تستنبئ ما تطلبه سالومي.

من ملك ممتد. وجواهر يعجز عن عدها البشر. ومدائن لا تحيطها أسوار. وفرسان تهتز من تحتهم الأرض. غير أنها علقت عينيها بعيني هيرودس قائلة:
- سأرقص في هذه القاعة الليلة على مرأى رأس يقطر دما. رأس يوحنا.

- هذا مما لا يكون!

قالها هيرودس غاضبا خائفا.

- لا يليق بالملك الرجعى!

- سقط ملكه إذا!

قالها هيرودس شبه باك!

- سقط ملكه إذا.

قالها القدر. وقد تعلقت العيون بسالومي التي أزمعت أمرها على رأس يوحنا.

قدماها دقيقتان تخطوان الأرضية المخملية بخفر.

عيناها عسليتان. تجوبان القاعة بفضول طفل.

تخطو على أطراف الأصابع الصغيرة. ويداها تثيران عاصفة من الترقب.

تفرقان أدخنة البخور. وتشعلان التربص في عيني «هيرودس».

وهناك.

في منتصف القاعة بالضبط. يقبع الرأس شامخا –لا يزال– ربما يقطر دما.

تتماوج خصلات شعرها الأسود المائج بلون الليل. تنسدل على جسدها الأبيض اللدن.

تتسلل عبر الخصاص أنوار قمر حيي يضيء ليلتهم.

حاجبان استويا على عينين عسليتين، تلتمعان، تضيئان السبيل، وتعدان بليال ماجنة.

ولقد تلقى هيرودس الوعد وأدركه، عيناه لا تطرفان.

شفتاها مغرورقتان بالحمرة، وجنتاها متدفقتان بها.

عيناها مرتسمتان كوشم. ثغرها منفرج كانفراجة العطايا، كوعد أبدي.

يتراقص الجسد. يتماوج الشعر في سواده، يختلط ببياض الكتف، فيخفي كامل استدارته حينا.

ويشي به أحيانا.

جنية من نار في ليلة من الأحلام. وثمنها؟ ذلك الرأس القابع هناك في شموخ.

تكشف عن مخ ساقها، مرمرية ساحرة، يستند الجسد على ساقين منتصبتين كأعمدة إغريقية من رخام.

جسدها ممشوق، مشتعل، كمنارة في خضم البحر راسخة، تهدي السبيل.

ويدور الجسد، ويدور رأس هيرودس، ويدور ملكه بل وتدور الدنيا.

يتمايل خصرها ومن حوله تتمايل الأرض.

وحول ردفيها تسطر أقاصيص الغواية.

ويقيم الشيطان اجتماعاته هناك.

الظهر منفرد يواصل التحليق، والكتفان تتبعان نهجهما.

وضوء النار يراقص نور القمر. تمتد القاعة بأرضيتها المخملية لتكتمل أركان الرقصة.

ووسط ظلمة الليل، وبين هذا كله قبع وحيدا، شامخا. الرأس!
تتمايل، تداعب الاوشحة، تتصنع الخجل
و عينا هيرودس متعلقتان، لا تطرفان
تود لو توقفت، و انتهي الامر، و انقضت اللعبة.
بالامس رفضها من تحب، و اليوم ترقص لمن تبغض، اكثر من تبغض.
قتلت حبيبها و رقصت لعدوها.
- يالسخف الاقدار!
تبصر الراس، تود لو تقبله، تتمايل بدورها، تتسائل عن هل كان ليشتهيها و لو لمرة اخيرة تفني بعدها و تنقضي
عينا هيرودس تتبعان، يسقط وشاح من سبعة
تحرك ذراعاها في الارجاء مختالة بالحسن.
تامران و تنهيان بلا رادع هذا المساء
و تمران علي الوشاح الثاني فينحل.
عيناها تعدان هيرودس بالمجهول، فيلتقط الوعد و يصرف علي اثره الرجال
ان سقط ملك الرجل هذه الليلة فليقبض الثمن كاملا غير منقوص
رقصة مجنونة لا قبل لها و لا بعد
ستتحدث المدينة طويلا عن نزع وشاح سالومي الثالث.
و عن تناغم جسدها مع اللحن.
و يدوي اللحن و تتراقص المدينة علي ملك قد زال
و علي ايقاع الرقص تخطو اصابع سالومي الرقيقة
و تنتزع الوشاح الرابع و تبدي اعمدة مرمرية كالرخام يرتكز عليها الجسد
و استدارة تتسع فتتسع لها الدنيا
و يهوي هيرودس و يجن
و استدارت سالومي و استدار العالم و انتزعت الوشاح الخامس
و امام عينيها يميد الراس في هدوء و تؤدة

بينما لا تقوي انظار هيرودس علي ادراك هذا
ساحرة هي؟ قطعا ساحرة. تلهج بذكر رقصتها المثيرة المدينة و كل مدينة
سينسون و يغفلون عن راس الراهب المقطوع في كل عصر
غير ان سالومي لا يغفل عن مثلها احد
تذوي بصمت و جزع : ليتك كنت هنا!
لرفضت كل هذا الدنس و انتفضت
لنزل هذا الملك عن عرشه لاجلك، و لاجل هيبتك و صرختك
و استحال الملك مجنونا اذ اقتربت منه و حلت الوشاح السادس
و تبدت كاسطورة تليق بها حكايا الاساطير
والقاعة تموج بالصخب. وعرش الملك يهتز. والرأس لا يزال رغم كل شيء شامخا!
- أُرِيدُ أَنْ تُعْطِينِي حَالًا رَأْسَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ عَلَى طَبَقٍ!
لم يدرك يوحنا أبدا لم انقض على رأسه السيف.
ولم سال الدم الطاهر على الأرض. وتدحرج الرأس.
زكيا طاهرا كما كان أبدا. صادعا بالأمر!
- يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا، وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.
غير أن سلامه استحال على عرش هيرودس غضبا.
وقد أثقل الملك بدعواه عند نهر الأردن صادحا، غاضبا، ينادي في الأفق:
- «يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ. وَلاَ تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَدًا لإِبْرَاهِيمَ. وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ، وَلكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ، وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ، وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ».

وعينا الملك تتعلقان بوشاح أخير. وبأصابع سالومي اللعوب تمتد لتراقصه.

ومن ثم تزيله بتؤدة وهدوء ليتبدي من تحته غواية الدنيا و بوابتها و يجن هيرودس

وتدرك سالومي ألا خلاص.

يمد يديه أن اقتربي. ائتِ. خاضعة طائعة.

ويبصر طرفها تروح هناك.

إلى طبق ذهبي احتوى رأس يوحنا.

يبصر بلا حراك عينيها تطوفان الرأس.

تختزل حسنه. وتقلب عينيها في تفصيلاته.

ومن بين دموع عينيها تمتد بشفتين زهريتين لتلثمان الثغر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- يا معلم! دعني أتبعك!

تدحرجت رأس يوحنا من شرفات قصر هيرودس. أغرق دمه الأرجاء.

وساد في المدينة الخوف توقع فتنة عظيمة وهم مقيم. أوبهذا أمل اليهود وارتجوا رغم أن لم تتحرك سواكنهم لصوته ولا لدمه! بل لاكوا سيرته كأسطورة قبيل أن يجف دمه.

تخيلوا وأشاعوا قولا عن ارتجاج قصر هيرودس غضبا جراء ما حدث وما اهتز إلا بتراقص جسد سالومي.

لقد اجتز جند هيرودس رأس يوحنا بلا رادع، لم يبال بمن تبعه منهم.

دمهم مباح وكرامتهم مهدورة مثلما كانوا أبدا، تراهم كذلك فعلا؟

تلون نهر الأردن بالدم، ولم يجرؤ أي من تلاميذ يوحنا أن يتواجد هناك خوفا. ولم يعل صوت منهم لأحد!

- أولست المخلص؟ من يحرر بني إسرائيل؟

- أنا أعمدكم بالماء. بينما الذي يأتي بعدي يطهركم بالنار! بالروح القدس. بل الذي يأتي بعدي قد صار قدامي!

(قد صار قدامي!).

إذا فقد آن أوان المخلص؟ فكروا وارتابوا وتربصوا عند سَاحِلِ بَحْرِ لْجَلِيلِ.

سمعان وأندراوس ويَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا بْنَا زَبَدِي.

قد رأوا من قبل يسوع عند نهر الأردن يطلب العماد ويوحنا يأبى.

- أوأنا أعمدك؟ إنما أريد أن أتعمد منك! –قال يوحنا مضطربا.

- بلى. اسمح الآن. لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر.

أبصروا الحمامة تحوم حولهما، ثم تختار كتف يسوع، تحط عليه آمنة، مختارة!

ويجتمعون اليوم من جديد عند بحيرة جِنِّيسَارِتَ، يلقون شباكهم، وينتظرون وعد يوحنا، مخلصا قد كان يأتي بعده قد صاره قدامه!

يسير يسوع في القوم آمنا، لا يخشى. ويأتونه القوم بأعمى.

- يا يسوع جئناك بأعمى منذ الميلاد. رد إليه بصره إن استطعت، فلنبصر ما تزعمه من طب.

يبصر التكذيب في عيونهم وأفئدتهم.

- ائتوني به!

يمرر باطن كفه على عيني الرجل، يمسح التراب الذي يظللهما.

شد ما يرتع هؤلاء القوم في الوسخ!

يمرر دهانا كان قد استخلصه قبلا على جفنه. يزيد في إغماض عينيه، يصطحبه إلى البحيرة. يغسله بماء يملأ به كفيه. ويعيد دهان عينيه من جديد.

- طهور وشفاء.

يردد.

يدلك مؤخرة عنقه بأصابعه.

- طهور وشفاء.

يردد من جديد.

- ائتوني به في الغد!

في الغد يجيئون به عاجزين عن مخالفة أمره إثر ما شدههم به بالأمس. يقترب الصيادون أكثر تاركين شبكهم غافلين عنها.

بينما يعيد يسوع غسل عيني الرجل وتمرير دهانه من جديد.

لم يعتد الرجل وعبر سنوات عمره البعيدة أن يفتح عينيه.

لم يفهم معنى لأن يضايقه ضوء الشمس. لكنه الآن ولمرته الأولى كان ضوء الشمس قد تسلل إلى عينيه.

إلى دواخله. مبصرا ظلالا لأصابع الرجل. يدعونه يسوع ويسخرون منه. يعلم ذلك جيدا رغم عمى عينيه.

أبصره كأول ما أبصر. الجد والعزم على محياه.

- إني أبصر يا معلم! وأرى.

صاح لدى مرآي الرجل.

وينادي القوم في الناس بأن يسوع فتح عيني الرجل رغم استمرار عماه طوال حياته!

يتفرقون. ينادون في الأفق أن يسوع –للدهشة- قد أتى بمعجزة!

وبينما الجموع تترقب الأمر مشدوهة إذ برجل يقترب من يسوع أكثر. ملامحه حادة، وجهه عليه سيما الغضب. ولحيته حمراء كأنما خضبت بدم.

مثل هؤلاء الصيادين جاء من عند نهر الأردن ولقد تعمد مثلهم. بل كان أشدهم –مع صمته- التصاقا بيوحنا وقربا منه.

ربما لا يزال جسده مبتلا بعد بماء العماد!

أمل في يوحنا الخلاص. غير أنه أخذ. قتله هيرودس بلا رادع.

قتله هكذا. لم يدفع عنه أحد.

وحنق الرجل بهذا وأصابه الكدر.

يتبع يسوع إلى زقاق ضيق. يناديه بصوته الحاد الذي حاول إخفاء حدته:

- يا معلم!

يبصره يسوع، هناك شيء غير مريح في ملامح الرجل.

في عينيه؟ تراه مظهره الغريب بين بني إسرائيل؟ كغراب شؤم!

- أبصرتك اليوم عند البحر.

يتكلم بحياد. يبتسم يسوع!

- لأخلاطك أثر السحر –يقولها ماكرة.

- أخلاطي؟!

- لا داعي للموارية –ينطقها بثبات.

فسواء أكان ما تفعله معجزة أو حتى سحرا –يسكت برهة قبل أن يتابع- أو حتى طبا! لا يهم، المهم أنه راق للجمع من بني إسرائيل!

نظر إلى عيني يسوع بثبات- والأهم أنهم يتبعونك. يؤمنون بك! الإيمان هو ما ينقصهم.

يصمت وهو يطلق بصره للأفق قبل أن يتابع:

- لو آمنوا بك جميعا! لكان لهذه الأمة من بني إسرائيل شأن بين الأمم، وأي شأن؟ لتحررنا من نير روما! لتحررنا! التحرر هو ما ينقصها.

قالها بينما قبض قبضته بعزم وقوة.

تابع يهوذا والألم باد على محياه:

- لقد عرفوا قبلا أن يوحنا هو الحق! صوت جاء من البرية! لم يتبعوه! أتعرف لماذا؟

حدق بعينيه: لم يقدم لهم غير العماد! أما أنت فتقدم لهم نفعا. تقدم لهم ما يلمسونه! لربما هذا ما يدفعهم إلى أن يتبعوك!

- لكنني لا...

- هل لي بأن أتبعك –قاطعه بحسم وقالها بلهجة من قرر بالفعل!

- لقد طال بقاؤه مع هذا الرجل غريب الأطوار!

يقول سمعان وهو يتأمل الزقاق الضيق حيث اختفى المعلم.

- تراه واحدا من جند روما؟ لربما يتبعه بغرض قتله؟

يتساءل يوحنا (الصياد) في رعب.

- أوينتظرون لقاءنا به ليفعلوا؟! –قالها يعقوب ساخرا قبل أن يتابع- أوترانا غربان شؤم؟ ونذير موت؟ بالأمس يوحنا واليوم يسوع!

- صه –قاطعه سمعان مغاضبا- دعونا نكف عن الثرثرة ونتبع الرجل. نبصر ما يفعل هذا الغريب وما يطلب.

ارتسم الرعب على محياهم وبان أن لن يتبعه منهم أحد في ذات اللحظة التي ظهر فيها يسوع خارجا من الزقاق ليتنفسوا الصعداء.

- لنقترب منه؟

- هل يحتاج الأمر إلى سؤال؟

- وجهه يرتسم عليه الكدر! ترى بماذا أسر له الرجل ذو اللحية الحمراء؟

- لا أثر له!

قال سمعان بتؤدة:

- لا أرى أن هذا الوقت المناسب لمفاتحة الرجل بكلام. يبدو عليه الاضطراب ولا ندري حقيقة ما قاله هذا الرجل الغريب. فلنؤجل لقاءنا به إلى وقت آخر أكثر مناسبة؟

بان على وجوههم الارتياح وكأنما خففت كلمات سمعان ثقل الاضطراب من على كواهلهم وسرعان ما انصرفوا. في حين كان يهوذا ينصرف في الاتجاه الآخر!

يتقلب يسوع في فراشه قلقا.

- هذا الرجل ماذا يريد؟ وماذا يطلب؟

يريد أن يتبعه. أن يجيء بمجد بني إسرائيل؟

لكنه لم ولن يطلب منهم القتال. أويفعل ما فعل طالوت؟

إذ غشيهم الظلم من قبل وأثقل ظهورهم، وتكالب عليهم ملوكهم وأعداؤهم ساموهم خسفا وذلا وهوانا. حتى قالوا لنبي لهم اجعل لنا ملكا نقاتل في سبيل الله!

حينها أرادوا القتال طوعا. فلما اختار لهم الرب طالوت ملكا استقلوه في أعينهم. رغم آيات الله فخرجوا معه مثقلين كارهين.

يومها أدرك طالوت تبعة أن يلقوا عدوهم وفيهم كارهون للقتال فيتولون.

فما أن لاح لهم نهر الأردن وكادوا يبلغوه بما لحق بهم من عطش نادى فيهم:

- إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي.

وتكالب على النهر أكثر القوم يشربون فلا يرتووون إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ منهم فأمرهم طالوت أن يتبعوه وتراجع أكثر الجيش.

حتى إذا تراءى جيش جالوت قالوا:

- لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ.

وتراجع أكثرهم ولمَ يبق مع طالوت منهم إلا نفر قليل.

يتذكر يسوع تلك القصة فيرتجف.

أويأمرهم بالقتال فينفضون عنه؟ ترى هل فيهم داوود فيقتل جالوت القوم؟

- لم أجئ بالحرب! لم أطلب مملكة! مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ!

مملكتي روح الإنسان!

- دعني أتبعك –قالها يهوذا بما يشبه الأمر.

بصوت لا يحتمل جدلا وبلهجة من عزم وقرر. وهذا يعني لزاما أن دعوة يسوع تنتقل إلى مرحلة أكثر خطرا.

أن يكون له أتباع لا يعني أن يشكل خطرا على روما وحدها! بل وعلى كهنة اليهود أيضا!

لكنه مع ذلك قد ضاق بالثقل، ويحتاج لتابع أمين يلتحق بدعوته! يعينه على شعثها ويثبته إن أنكره الناس!

- لقد أعطي الناموس لموسى! أما أنا -يسوع- فقد أعطيت الروح!

لقد كان لموسى يَشُوعَ بْنَ نُونَ تابعا، بل قد كان موسى ذاته تابعا للخضر. أما هو –يسوع- فحتى هذه اللحظة لم يتبعه منهم أحد!

في اليوم التالي ذهب يسوع أيضا عند البحيرة.

يدعو القوم إلى التطهر والتبتل. لأن يحب بعضهم بعضا. لأن يلقي بعضهم ما في قلبه من بغض وضغينة في الماء بدلا من أن يكتفي بأن يطهر جسده فيها.

جاءه اليوم أيضا سمعان وأندراوس ويَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا بْنَا زَبَدِي.

- يا معلم! دعنا نتبعك.

- ...

- إنما تبعنا من قبل يوحنا. طهرنا بالماء، دعانا لأن نتبع رجلا مخلصا يأتي من بعده قد صار قدامه.

قد أبصرنا فيك سيماءه. ولقد أبصرنا الحمامة تحط على كتفك. فدعنا نتبعك يا معلم!

يحب أن يكون له أتباع. لكنه يخشى الأمر. يود لو مضى وحيدا. وأيضا يحب أن يتبعوه في شوارع المدينة أينما ارتحل.

ألا يعود هملا. وحيدا. ما أن يقدم على قوم حتى يبصروه. يبصرون من حوله جمعا وتلاميذ. يدركون أن هذا رجلا يقول ما يُسمع. ما يُلتفت له.

هذا ما يفهمه بنو إسرائيل وكل بني إسرائيل في كل عهد. لا ما يقول الرجل. بل من حوله ومن يسمعه!

ولما كان الأمر كذلك وبرز للقوم وحوله الأتباع فكان لزاما أن يسمعه منهم نفر كثير.

ولقد سمعوه حقا. بل وتبعوه. وتكاثر من حوله القوم حتى قرر أن يطلب أورشليم قبل العيد. فيقيم هناك ويبشر الناس في الهيكل حيث اجتماع الناس. فلربما آمن له القوم.

وانطلق ومن خلفه بشر تقطر أجسادهم من ماء العماد بقية باقية من أثر يوحنا ابن زكريا بينما لم تخلص أو تطهر قلوبهم بعد أو تنبت ببذر يسوع.

وأتى القوم في الطريق بئر يعقوب وانطلقوا جميعا إلى المدينة يطلبون طعاما بينما استند يسوع إلى البئر منهكا من طول الرحلة. وبينما هو كذلك إذ جاءت امرأة سامرية البئر تستقي وتملأ آنيتها.

- هل لي بسقيا يا امرأة؟ -قال يسوع متعبا.

أبصرت ملامحه بعجب.

- أولست يهوديا؟ -قالت السامرية بضجر.

- بلى.

- فأنا سامرية إن لم تكن تعرف هذا بعد. وحق لك أن تعرف فإنكم معاشر اليهود لا تشربون من أيدي السامريين!

- إنما نحن جميعا أبناء رب واحد! خلقنا بيديه وبث فينا جميعا من روحه.

صرفت بصرها عنه في شموخ متجاهلة ما بث فيها صوته من خدر.

- أولا تسقينني؟

- ...

- لو علمت من أنا! لو عرفت مَن هو الذي يطلب منك ليشرب لطلبت أنت منه فأعطاك ماء مانحا الحياة!

ابتسمت السامرية بحيرة من كلامه. لا يظهر عليه الكذب رغم ذلك. ولم يبدأها بعداء رغم كونه يهوديا. بل لم يتجنبها كسائر قومه، وفي صوته سحر

غريب!

- يا سيد! البئر عميقة، وأيضا لا دلو لديك. فمن أين لك هذا الماء المانح الحياة؟!

تقولها بخبث ومواربة.

- إذا شربت ماء من هذه البئر تعطشين ثانية،-يوضح يسوع. أما الماء الذي أُعطيه فيمكن أن يحيي الشخص إلى الأبد.

تشعر بما في لفظه من تورية لم تفهمها أبدا! تقول ببراءة واستسلام وقد شعرت لأول مرة بما يلم بجسدها من ألم وإرهاق جراء السقيا! وليس لها من يسقي عنها: - يا سيد، أعطني هذا الماء! وعندئذ لا أعطش ثانية أبدا. ولا أضطر إلى المجيء إلى هنا لأستقي الماء في ما بعد.

أبصرها يسوع بغموض وقد أدرك أن قد بلغ مأربه.

- اذهبي وادعي زوجك وتعالي ثانية.

- ليس لي زوج!

- أجبت بالصواب. ولكن كان لك خمسة أزواج، والرجل الذي تسكنين معه الآن ليس هو زوجك.

أجفلت المرأة في موضعها لا تبارحه بينما حدقت في عيني يسوع المثبتتين عليها طويلا!

أوديف يحوم حول المكان.

- قصة مستهلكة عن نبي يدعو قومه! لا جديد.

ككل تلك القصص التي تنوء بحملها الكتب.

- غير أن الكتب لا تحكي كل شيء!

تبادلا نظرة مرتابة! وقد أدرك الغراب الصغير أن في الأمر لغزا!

- لقد كان يسوع حينها شابا يافعا، يتقدم رجالا، على سفر، تحت حر قيظ شمس لافحة، كان عطشا حقيقة، وكان عطشه مجازيا أيضا.

قلب الغراب بصره في عيني أبيه يطلب المتابعة.

- كان مستندا إلى البئر في بقعة ظليلة لا تكاد تبين، حين بدأت السامرية في التحرر إثر القيظ. رويدا رويدا بدأت في التحرر ولقد بدا أنها تزمع أن تصب على جسدها الماء.

لقد كانت ليلتها السابقة مثيرة فيما يبدو –خمن يسوع.

لم تتوقع أن يكون أحدهم في هذا الموضع، وحق لها هذا الظن فحتى أتباع يسوع قد التحقوا بالقرية.

حين أبصرته يقترب تجاهها امتلأت رعبا!

- لا تخافي يا امرأة. لا عليكِ. إنما أنا غريب. يهودي من الناصرة.

- وهل يجيء من الناصرة شيء جيد؟ -قالتها متلمظة مغتاظة.

أبصرت جسده في حين شرعت في ارتداء ثيابها.

- جسدك بديع.

نطق في حين حاولت إخفاء ابتسامتها.

- ملابسك أيضا رائعة. هل لي بعبق من شفتيك علّي أروي ظمئي؟

أطرقت بخفر وحياء:

- أولست بيهوديا؟

- بلى.

- وهل ليهودي أن يقرب سامرية؟ –أطرقت بحزن مقيم، لقد تذكرت حبيبها الأول. يهودي من الناصرة أيضا! لقد ترفع عنها إذ كان دينه يقضي بألا يزف إلا ليهودية مثله، أين كان دينه حين أحبها ودفعها إلى حبه؟

تذكرت المرأة جرحها القديم.

- يجوز له ذلك إن حاز مثلك!

- إن زوجك لذو حظ عظيم. –قالها بحسرة من لم تمنحه الحياة جسدا غضا يأوي إليه.

- ليس لي بزوج –قالتها بحسم، بلا مبالاة وصراحة.

قبض على جسدها كجائع يقبض آخر زاده.

- تبدين شهية ما زادت منعتك، منيعة، كحصن منيع، وكلما زاد الحصن منعة صار شهيا لذيذا. -التقمها بوله وتابع- مثلك.

- صدقت إذ قلت ليس لي بزوج. وطأ جسدك أربعة أزواج من قبل. أما الآن فمن يطئك ليس لك بزوج.

أثارتها كلماته إذ قصد نفسه. أثارها أن يأتيها يهودي يذكرها بما مضى من الأيام. ينكأ جروحها القديمة ويأتيها.

- كيف عرفت؟!

ودت لو سألته غير أن غيبتها الشهوة. كيف لهذا الناصري الغريب أن يعلم تفاصيلها ويعيها في مرة واحدة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقولون بإن الأبناء الجيدون هم نتاج عاطفة حب. ولقد كان هو نفسه محبا، عرفت امه الحب.

ونصبت على أثره قديسة إذ تغذى جسدها وتماهى مع حب أبدي لا ينقطع. ونتاج ذلك فعل كذا مع امرأة البئر لما كان متشربا بذكرى عابرة لذلك الحب القديم. وود لو فعل كذلك في كل امرأة قابلها أو صادفها. أن يبثها حبا خالصا يخترقها.

كان ذا وله بالكتف. ولقد كانت صاحبة كتف بديعة. تستدير فاتنة ممتلكة جماع الأنوثة وخلاصتها.

تتثنى، يتسارع النفس هنالك، تختلج. فيختلج القلب. ينبض، يروح ويجيء.

استدارة الكتف استدارة الدنيا وخلاصتها.

همس في أذنيها بأن:

- حسنك يا حلوة ملهم. بديع. –يقبل الكتف ويواصل رحلة القبل- حسنك مُذهل، يستنطق القول. يستدعي جميله.

حسنك يا حلوة رائق وبكر.

- أتاني من قبلك جمع كبير. غير أني قبلك لم أمس!

- أعلم.

حسنك يا حلوة يسمع الصم، يضيء للعميان، يستنطق الأصم.

في حسنك تتوارى التماعة الشمس.

يخجل من نورك نور القمر!

وددت لو أغزل خصلات شعرك الحلوة.

أستدعي من التماعتها إشراق الشمس، بل لعلي أخلق من غزلها شمسا جديدة. تدور حول مدار جديد لم يُعرف سلفا. تحيطه النجوم!

حسنك يا حلوة جدير بأن يقلب موازين الكون.
وددت لو أنسج لأجل حسنك لحن قول جديدا. غزلا جديدا.
لأنفك أنفة يخضع لها القول. فيتوارى خجلا جميل القول.
يتقاطر القول لعلك ترضين.
كانت ذائبة كقطعة سكر بين يديه.
- شفتاك يا حلوة خمر وسكر.
وددت لو أذوي فيهما وأفنى.
استدارة كتفك غزل صريح. أنوثة مفعمة لا انتهاء لها.
دعوة صريحة للشعر. للغزل. للحب.
حسنك يجيء من بدايات الخلق. من فجر التكوين.
ذكرى لأنثي وحيدة لم يخلق مثلها مثل ولا شبيه!
- حق لهذا القول أن يبلغ الملأ من بني إسرائيل ليعلموا ألا يجيئوا نساءهم كما تؤتى البهائم. بل لو بلغهم لربما رمونا بالتهم عجزا. يسموننني عاهرا؟ بل العاهر من تؤتى لشهوة بعض ساعة ثم يُتولى عنها.
- قولي جميل؟ بعض حسنك. قطرة من جمالك. يجيء منك وينتهي عندك.
حظي عظيم أنا بين البرايا بأن قاربت بعض حسنك. بأن قاربتك.
أنت جميلة كالأنثى. لا كأنثى. بل كالأنثى. منك تجيء الأنوثة وتنبع فضيلة الحسن.
وددت لو أستقطرك قطرة قطرة. أستبقي في أنوثتك.
أشتم أنوثتك تنقلني لعوالم بعيدة، عوالم ما قبل التكوين.
وددت لو مررت بشفتي على جسدك، أمطره بالقبلات.
ألامسك، أحتضنك.
أن أتوجه إليكِ كمحراب عبادة.
أن أذرف عندك دموع التوبة والندم على عمر ضاع لم أبلغك!
يا أنثى العصور، يا الأنثى لكل العصور!
أريد أن أطبع قبلة نزقة خلف أذنك ميثاقا للغزل.

علها تشهد لي بأني كنت هناك.

شهية، لذيذة. فاتنة، بل منك يتعلم الحسن.

الحرير يداني رقتك، يقاربها.

أريد أن أنثر القبلات على منابت جيدك.

أهمس بأذنك:

- أنتِ بحسنك خطر داهم على كل النساء. أنتِ بحسنك اختصرت حسن النساء وغنجهن.

أريد أن أقارب الخطر، أن أدون على محرابك بأنك أنثى خطر!

أريد أن أطرقك، وددت لو انتزعتك من عالمك.

- أما حق لهذا القول بأن يدون ويعلم؟

تساءل الغراب ببراءة.

- ذلك قول خطر مما يثير الخيال. ولربما خالف ذلك إرادة الرب فلربما بغض الخيال!

- بل الرب جميل، يحب الجمال.

تبسم أوديف بحذر.

كان الغراب يخبئ رغبة دفينة ربما فألقى بظلال رغبته على القصة؟

فكر صغير الغراب. ربما، لكن لم لا يكون ما قصه حقيقيا. أوليس كل حكايا التاريخ في الأخير هو وجهة نظر؟

بل إن حكايا أوديف العجوز أكثر إثارة من نظيرتها المدونة ربما.

ما أجمع عليه الكل أن يسوع واصل طريقه صوب أورشليم وسط حكايا من الأتباع عن امرأة متوردة الخد والجسد ازدادت بلقياه حسنا ظلت تبشر به وتدعو قومها إلى اتباعه.

ووسط تساؤلات صادقة عن قدر السحر الذي ينثره يسوع حوله حيث حل.

وعن سبب إيمان النساء به بحرقة وصدق.

فكروا أن لصدقه ولسانه دورا ما. وإن فكر البعض أن ربما امتلك وسائل إقناع أخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد كان قائد المائة جنديا صغيرا وقت ثورة الهيكل، سعى لمطاردة الجمع من بني إسرائيل واستئصال شأفتهم. واهتم حينها بأساطيرهم القديمة وحكاياتهم عن المعجزات، أسرته معجزة حمل الياصبات وإن لم يؤمن بها. لم يعلم بأن مع تأخر الولد سعت زوجه إلى قبر الياصبات للتبرك به! طلبا للذرية كعادة النسوة من بني إسرائيل.

ولربما لو علم لأنبأها أن في هذا إيمانا مبطنا برب بني إسرائيل. لم يعبأ قائد المائة برب.

لا رب اليهود ولا رب روما. حتى عندما تطاير إليه خبر هذا الرجل يسوع لم يعبأ به. ربما انبهر ببعض ما قيل عنه من معجزات.

انبهر بقدرة بني إسرائيل على التصديق. خلافا له الرجل المجرب الذي لا يشده الإيمان ولا تغويه دعاوي الآلهة.

لكن مرض ابنه شديد. ابن وحيد رزق به بعد يأس. ألمت به الحمى. توهج جسده بها.

وأشرف على الموت! زوجه باكية قانطة تطلب منه أن يفعل شيئا. لا طب ذو جدوي. يمنحونه عقاقيرهم البائسة فتغيب الحمى لبرهة ثم سرعان ما تعود لتهاجم جسد الفتى وعظامه أعظم وأقوى.

آوى قائد المائة إلى الجدار قانطا!

- ما بوسعي أن أفعل يا امرأة! روح فتاي تتسلل من جسده.

قالها بعجز فبادرته بنظرة آملة.

- اذهب إلى يسوع! يشفي المرضى ويقيم الأموات.

نظر إلى عينيها يبحث عن علة جنون، غير أن كلامها لا يلم به جنون أو خبل.

- أدرك الرجل!

وامتطى جواده وارتحل!

حين أدرك القوم كانوا يتبادلون القول عن معجزة يسوع حول مباركة الخبز والسمك. مضاعفتهما بما يكفي مئات الأتباع!

كان يسير ومن خلفه وعن يمينه ويساره خلق كثير.

في وقت آخر كان من مسئولية قائد المائة أن يحذر قواده بأن هناك خطرا عظيما يحدق بهم جراء كثرة أتباع هذا الرجل.

- يا يسوع! أدرك ابني –قالها وجلا يائسا- إنه يموت!

- هون عليك يا رجل. كيف تركته؟

- ميت! الحمى تشتعل بجسده، وزنه يخف، وجلده مصفر.

قلب يسوع الأمر في عقله.

- هل قربت جسده للماء.

- صباحا وعشية. تذهب الحمى وتجيء.

سرعان ما يشفى. فكر يسوع. ما أصابه عرض يصيب بعض الأطفال في سنه. غير أن سرعان ما يتغلب الجسم عليه.

- أعلم أنك تستنكف أن تأتينا! ترانا أهل وثن؟ لكن بوسعك أن تشفيه من مكانك هذا بأمر الرب. –قالها بلا إرادة وجلا- أليس كذلك؟ -تابع بخوف.

تأمل يسوع ملامحه. ويح الرجل. لو كان له أتباع من أمثاله مفعمين بالإيمان؟ فلقد آمن بالرب بلا معجزة!

أم أن الشدة تخلق إيمانا لم يوجد قبلا؟ تجعله أقرب للتعلق بأي عرض سماوي للنجاة؟ سينجو ابنه.

- الحق ابنك! فهو حي. –قالها يسوع بإيمان من بيده تقرير الشيء.

ذهل الرجل من ثقته، نظر إلى عينيه برجاء. لم ينطق. لم يحرك شفتيه حتى. آوى إلى فرسه. ونظر من جديد إلى يسوع. ثم انطلق.

وتداول الملأ حكاية جديدة عن طفل شفي بكلمة من لسان يسوع للوقت!

- أَلْحَقَّ لْحَقَّ أَقُولُ لَكمَ: لا أَحَدَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ مَا لَمْ يُولَدْ مِنْ جَدِيد. أَلْحَقَّ لْحَقَّ أَقُولُ لَكَ، لا أَحَدَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ مَا لَمْ يُولَدْ مِنَ المَاءِ والرُّوح.

قالها يسوع صادحا في الهيكل لا راد لقوله! ثم تابع:

- مَولُودُ الجَسَدِ جَسَد، ومَوْلُودُ الرُّوحِ رُوح. لا تَعْجَبْوا إِنْ قُلْتُ لَكَم: عَلَيْكُمْ أَنْ تُولَدُوا مِنْ جَدِيد.

أَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاء، وأَنْتَم تَسْمَعُون صَوتَهَا، لكِنَّكَم لا تَعْلَمُوا مِنْ أَيْنَ تَأْتِي ولا إِلى أَيْنَ تَمْضِي: هكَذَا كُلُّ مَوْلُودٍ مِنَ الرُّوح.

مَا مِنْ أَحَدٍ صَعِدَ إِلى السَّمَاء، إِلاَّ الَّذي نَزَلَ مِنَ السَّمَاء، أَي ابْنُ الإِنْسَان. وكَمَا رَفَعَ مُوسَى الحَيَّةَ في البَرِّيَّة، كَذلِكَ يَجِبُ أَنْ يُرْفَعَ بْنُ الإِنْسَان، لِكَي

تَكُونَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِهِ حَيَاةٌ أَبَدِيَّة. هكَذَا أَحَبَّ اللهُ العَالَم، حتَّى إِنَّهُ جَادَ بِ بنِهِ، لِكَي لا يَهْلِكَ أَيُّ مُؤْمِنٍ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّة.

يتجمع حوله القوم، يريدون أن يبصروا ذلك الذي تدور حوله الحكايا. وتداول القصص. وعلى يديه تجري المعجزات.

في أورشليم. يوم عيد الفصح. حيث اجتماع جمعهم. حوله تلامذته يحرسونه لا يقرب منه بأذى منهم أحد.

- إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً.

يأتي بركة في قلب هيكل عبادتهم قد اضجع حولها خلق كثير.

يجيء إلى أحدهم مضجعا لا يتحرك.

- يا هذا! قم فاحمل سريرك!

- إني مريض منذ دهر. ما في جسدي من موضع سليم!

يقترب يسوع منه. يخرج بعض أخلاطه عجيبة الشكل ويصبها في محقن عجيب. يحقن الرجل في جسده بسن مدبب ويدفع السائل في جسده. يتأوه الأخير ألما.

يحرك يديه على قدمه بدهان كان قد أعده سلفا. دوما ما يخبئ أخلاطا مختلفة لا تتشابه. يقبض على قدم الرجل. يبدأ في حل أربطته.

- قم فاحمل سريرك!

يقولها في عيني الرجل مباشرة!

تداولت الحكايا من جديد عن أن يسوع قد شفى الرجل بكلمة!

رغم أن الغراب يشهد أن يسوع داوم على فعله هذا لثلاثة أيام متتالية. زالت الثلاثة أيام وبقي الخبر. أن يسوع قد شفى الرجل بكلمة!

وتناقل الأمر إلى كهنة المعبد أن يسوع قد شفى رجلا يوم سبت! وثارت ثائرتهم!

- أوتأمر الرجل بأن يحمل سريره في يوم سبت؟! كيف تجرؤ!

قالها كبير الكهنة ثائرا مغتاظا، الكبر يحيط ملامحه. شعره الأبيض يتهدل على جانبي رأسه.

- أولم تبصر أنه مقيم هنا منذ زمن؟ ماذا فعلت أنت له!

- كان يطلب البركة، والمغفرة، يستعذب البلاء بغية تكفير ذنبه.

- كان مقيما يتألم! ينخر المرض جسده. وشفيته بأمر الرب. وبكلمة الرب. لقد فعلت فعلا طيبا لم تفعله أنت، دقق نظره في عينيه بكراهية خالصة متذكرا ما فعل الرجل بمريم.

- إنما أمرنا ألا نعمل يوم سبت!

- إنكم تختتنون يوم السبت وفق شريعة موسى وتستنكف أن أقيم إنسانا في يوم سبت؟!

- إنما نخدم الهيكل ونطيع أمر الرب!

- الإنسان هو هيكل الرب!

- أنت مجدف! كافر!

- فلتنقضوا هذا الهيكل! وأنا! في ثلاثة أيام أقيمه!

وأشار إلى جسده!

كان أوديف يحلق من جديد حول موضع يسوع، لقد أثبت هذا الرجل أنه يقول كلاما خطرا، أخطر من يوحنا ربما لولا أنه لم يهاجم الملك. لم يتعرض له بكلمة! حتى جاء الهيكل، خطاة كثيرون هناك يطلبون الكهان، التقت عيناه بعيني قيافا. عجوز ماكر خبيث، التقت أعينهما من قبل ربما يوم عجز أن يدفع عن مريم. أما اليوم فإنه يتسمع لخطايا المذنبين، يقدرها ويأمرهم بدفع الصدقات للهيكل. غير أنه لا يقبل عملة قيصر. كافر ذميم، لتستبدلوها من أحد صيارفة الهيكل بعملة ملائمة. والصيارفة يأتمرون بأمره، يضاعفون القيمة فيجتمع له المال!

يدخل عليهم يسوع الهيكل صارخا:

- يا أبناء الأفاعي، يا قتلة الأنبياء! يقول الرب إن بيته هذا للعبادة!

يمزق عملاتهم كل ممزق!

- أونقبل بعملة روما؟

- فمن هذا الذي عليها؟

- قيصر.

- ادفعوا ما لقيصر لقيصر ودعوا ما لله لله!

ترتعد صدورهم، أضمروا! لقد صار هذا الرجل خطرا!

عند بحيرة طبرية خلق كثير يتحلقون حوله، جاءوا من كل حدب، يتسمعون له، حتى إذا ما جاء موعد طعامهم أمر يهوذا فجاءهم من مال الصدقة بخبز وسمك كثير. فأكل القوم حتى شبعوا وأمنوا وتداولوا بينهم أن يسوع أطعمهم وسقاهم.

- فلنبق إلى جوارك يا معلم!

- إنكم تطلبون جواري حيث تأكلون مما تشتهون بلا جهد ولا نصب، ليس لأنكم ترون فيّ آيات الله. من يقبل إلي لا يجوع، ومن يؤمن بالرب لا يظمأ.

من يأكل لحمي ويشرب دمي فأنا أقيمه في اليوم الأخير.

ما أكلمكم به هو روح وحياة. ولكن منكم قوم لا يؤمنون.

أكل القوم حتى أتخموا. وثقل عليهم قوله فانصرفوا إلا اثنا عشر صاروا تلامذته وحوارييه.

- أخذتكم اثنى عشر. غير أن فيكم شيطانا.

- خبز وماء وشفاء. ذلك ما الناس تطلبه. بعلمك تقدمه لهم يطلبونك.

تذكر يسوع ما قاله لمعلمه يوما وتابع:

- فلم لا تقدم لهم ذلك؟

- ما أردت أن يطلبوني. فقط أريد العيش بسلام!

- إن يطلبوك يا معلم تصر ملكا!

- الناس تطلب ما ينفعها. لا يطلبونك لعظمتك! بل لعظمة ما تقدم لهم وتبذل. فإذا ما فنيت أو فني ما تقدم انفضوا عنك. لا يطلبونك حينها بل ودوا لو يطلبون رأسك.

الناس تطلب الدعة، تميل إلى الركون. والخنوع وخفض الرأس.

المذلة، والجنوح إلى التراب!

- يا معلم. أريد مجدا!

- وأنا أريد أن أترك وشأني!

انتقل إلى الجليل، يلتف حوله التلاميذ. يلقنهم، يطلبه الناس حيث حل. المجد والشرف يلوح في عينيه. وعلى جبينه.

ويتساءل القوم فيما بينهم.

- أصالح هو؟

- بلى.

يقولون ومعجزاته ملء السمع والبصر. وأموال الصدقة بين يديه.

- كيف يُعلم الناس وما تعلم في المعبد؟

- بل جادل الكهنة حين كان طفلا صغيرا يحدثهم. أولا تذكرون إذ دخلت مريم المعبد به فحادث الكهنة من علمه فصدهم عنها إذ أرادوا منعها إذ إنها أنثى؟

تداول القصة في بني إسرائيل بأسانيد كثيرة. حتى وصل الأمر في المنتهى إلى القول بمعجزة لكلام يسوع في المهد! معجزاته كثر يجتر بعضها بعضا!

- حق أن يلتحق بيوحنا. أن يجتز رأسه!

- بل فات أوان ذلك!

- ما فات!

- ربما دفع عنه الأتباع والصحب!

- المال ينضب من المعبد ليروح إلى يهوذا أمين المال! ومنه إلى يسوع فيغدق على الناس. لقد صار يسوع خطرا!

كان بين تلامذته ملكا إذ دخلت مريم. تشرق بقدومها على المكان. اقتربت منه، تلمست وجهه بأناملها الرقيقة. تهيم به.

مررت أناملها بين خصلات لحيته.

تلامذته مشدوهون مبهورون.

ترسم ملامحه بأصابعها ولهة. محبة!

حلت من طبقات ثيابها قنينة من عطر.

شهق التلاميذ.

عطر غالي الثمن لا قبل لهم به.

على أطراف أقدام يسوع تهاوت القنينة. تمرر مريم العطر على قدمه، على شعرها وتغسل قدمه به. تمرر كفيها الرقيقتين على جسده. تعطره بعطر يشع حبا وبهجة.

للحب رائحة بهيجة آثرة. ولمريم رائحة انسابت بين خلايا جسده.

شهقِ التلاميذ وشع على المكان هدوء عجيب وسكينة.

غير أن يهوذا دمدم.
- لو بيع هذا العطر لجيء بثمنه بطعام كثير للفقراء.
أبصره يسوع لائما.
- إنني الآن بينكم. وغدا قد لا أكون بينكم. أما الفقراء فمعكم في كل حين.
انقبض قلب مريم. وشهق التلاميذ من جديد.
بينما ذاب يسوع في عيني مريم.
اسمها مريم. جاءت من مجدلة. جسدها أبيض بض. مفعم بأنوثة وسحر.
مائج ثائر بلا قرار.
قد رهيف. يدور فتدور حوله الدنيا.
عينان مشتعلتان. تحوي الدنيا وتختزلها.
اسمها مريم. الجسد نزل من الجنة عيناها؟ ساحرتان. تعدان بالحب.
والشفتان خمر مصفى بطعم الشليك.
يود لو ذاب فيهما أبدا.
الشعر بني تتخلله خصلات من تبر ووهج وحمرة.
والجيد من رخام، بل أصفى. أشهى وألذ.
ود لو انتصب هناك معبد ومتحف لعبادة الأنثى.
- أقبلي يا مريم.
قبض أصابع يديها، شبك أصابعها بأصابعه. والتقت شفتاهما والتلاميذ شهود.
- الحق والحق أقول لكم، قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن!
هكذا قال منتشيا، لم يبال بالحرمة أو بالهيكل ولا بالشريعة ولا أي شيء آخر.
قالها قبل أن ترتسم على محياهم ملامح شيطانية.
- ينبذ إبراهيم والكلم والكتاب وكل شيء!
- أوسمعتم منه؟
- يتداولها الناس عنه!

- إفك عظيم!
- كفر بواح!
- لا بد من أن يجتز عنقه!
- كيف يصبر عليه الملك؟ يوحنا لم يأت بنصف هذا وقتل!
- بل لم يكن له هذا العدد من الأتباع أيضا!
- لم يسب لا ملكا ولا ملكة! ولم يدع مملكة!
- هل قال أنا ملك اليهود! مثلما قال يسوع؟
- أوقد قال يسوع؟
- ربما!
- بل ادعوا أن يسوع هو المخلص! هو المسيح!
- أوليس المسيح المنتظر يضج أركان عرش روما؟
- لا تشع هذا القول فيجتمع حوله الناس أكثر!
- أويتركه القيصر؟
- أولم نسب روما قبلا؟ أوندفع عنها الآن!
- بل مسيح كذوب هو يفتن الناس بالسحر والخبز!
- يقول ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!
- يحيا بالخبز والسمك! -ساخرا-
- فليقم أود أصحابه بلحن القول!
- فلنشع في الناس أنه يدعو إلى مملكة فينقض عليه الجند!
- يقول دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله!
- أفلا رددتم عليه بأن الكل لله؟
- فيجتز قيصر رؤوسنا نحن؟ أمجنون أنت؟
- اللعنة!
- نقول بأنه يزعم ملك اليهود! تلك خلاصة الأمر فتثور ثائرة روما واليهود معا!

وائتمروا..

أشيع في البلاد أن رأس يسوع مطلوب.

الملأ يطلبونه. يجيء بآيات كثيرة تقض مضاجعهم. وتهدد سلطانهم.

آوى إلى بيت عنيا سرا. إلى دار مرثا ومريم وأخوهما لعازر.

كم يرتاح في دارهم حيث يلتمس طمأنينة ودفئا وجوا عائليا لم يتحصل عليه في داره.

- كن حذرا يا معلم. إنهم يطلبونك ولن يقبلوا بأقل من رأسك.

- لمنفعتكم أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها.

قبضت قلوبهم لقوله وإن لم يعوه ولم يفهموه حق الفهم.

قال ثم نظر إلى لعازر بود. نظراتهما متواطئة تنبئ أن بينهما أمرا.

كذا فكرت مرثا فلقد أبصرتهما بالأمس يتحدثان سرا في جانب الدار وإن لم يصلها فحوى كلامهما.

رحل يسوع. في اليوم التالي لرحيله مرض لعازر مرضا شديدا.

عملت الأختان على تطبيبه. كان ما ألم به شديدا. فأرسلتا إلى يسوع بأن حبيبك مريض. سيسعى إليهم حتما فما بينهما عظيم. سيسارع بغية شفائه.

أم ربما لم يأت ويشفيه من مكانه كابن قائد المائة.

تقلبهما الظنون.

لقد مات لعازر

بلغ يسوع الخبر. تراه حزن حقا؟ تشكك التلاميذ فيما بدا على ملامح وجهه.

لقد تأخر، حين بلغه خبر مرض الرجل لم يفزع كما ينبغي له. واصل الاهتمام بما يدور حوله حتى بلغه خبر موته. لربما جزع قليلا. لكنه ثابت كالطود أمرهم: - هلموا إلى بيت عنيا.

بيت العناء والنصب.

تراه بدل رأيه في موضع راحته؟

- يا معلم، قد مات لعازر! لو كنت هنا لما مات.

استقبلته مرثا حزينة دامعة العين. نظر إلى عينيها بقوة.

- خذيني إلى قبره!

كان الموكب إلى قبر الرجل مهيبا. حضر نفر كثير من اليهود في وفاة الرجل الصالح لعازر.

دفنوه وواروه التراب منذ أربعة أيام وانطلقوا إلى قبره خلف يسوع.

للموت جلال وهيبة.

للموت حضور، وللقبر كذلك. وحشة تليق بمستقر أخير.

- ارفعوا الحجر.

قالها يسوع بغتة! حاسما. يعرفونه حين ينطق بقوة بعزم لا يلين.

- يا معلم لقد انتن –قالتها مرثا بذعر- لقد دفن منذ أربعة أيام!

- ألم أقل لك إنك إن آمنت ترين مجد الله؟!

بحسم قالها لا يهادن!

تدحرج الحجر بين أيديهم. وإن أصدروا همهمات اعتراض.

- لعازر!

رددت الأجواء الصامتة الصدى. نداؤه قوي مختلط بقوة داخلية.

- هلم خارجا!

خيم الصمت على الجميع لوهلة! ساد بينهم خوف مكتوم. الأجواء مقبضة، وكسر الصمت حركة مترددة من القبر. وأمام عيونهم المذهولة كان جسد لعازر البادئ في التحلل يخرج وسط دهشة الجميع ملفوفا بأكفان ومناديل.

- خلوه ودعوه يذهب.

وانطلق وسط دهشة الجموع!

- لقد أقام لعازر!

تداول بنو إسرائيل الخبر. أن يسوع قد شفى خلقا كثيرا. أما اليوم فقد أقام ميتا!

للموت –رغم كل شيء- رهبة وجلال. ولقد تغلب يسوع هذه المرة لا على المرض والبؤس بل على رهبة الموت ذاته واخترق الحجب.

لقد أقام ميتا. بث فيه الروح. وإذ يبث الروح ويأتي فعل الإله ذلك مما لا يتأتى إلا لمبعوث من عنده يحمل قبسه. من أقام ميتا جدير به أن يقيم جسد

بني إسرائيل، ومن تغلب على الموت أولى به أن يتغلب على روما!

- لو استطاع لأقام يوحنا!

- لقد ارتضيتم قتله والآن تطلبون قيامته؟

- كان يوحنا صوتا صادحا في البرية! أما يسوع فقول وعمل. وفعل يعجز الناس عن معارضته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمن بيسوع من بعدها خلقا كثيرا. واجتمع لأمره الملأ من أحبار بني إسرائيل.

- الإيمان بيسوع خطر. زلزال يهدد عقيدتنا وصلاحها! يخفف أثر ناموس موسى وسلطانه على نفوس بني إسرائيل.

- لا بد من أن يقتل!

- لا يملك المجمع سلطانا على قتل إنسان!

- فلتقتله روما!

- روما؟ إن قادتهم يدعونه يعثو في الأرض كيف شاء! فبأي جرم يقتلونه! يرضون عنه إذ إن ما يلفظ به تدليس وكذب. افتراء على الرب. يريدون لنا أن نظل في ظلماتنا لا نقوى عليهم، تتنازعنا فتنة وأخرى لا نكاد نبين. ثم إنه لا يؤلب عليهم!

- لقد ألب عليهم يوحنا من قبل وسلمناه فلم ندفع عنه!

- فلا نقتله، نؤلب عليه. أولا يزعم أنه ملك اليهود؟

- أوقد فعل؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القصر مضرم بنار المنافسة. حاكم أورشليم (بيلاطس) يتابع الأخبار.

يتسمع ما يثار من تهم تخص رجلا جاء من الناصرة. وإن لم يعرف جرمه غير أن اليهود يبغضونه (هل يجيء منهم خير قط؟).

- روما غاضبة من رجل لا زال يبشر بأنه ملك اليهود!

- ما سمعنا بهذا!

- أوغافل عن مملكتك أنت؟ فماذا إن بلغ القيصر تقصيرك؟ أو أنك تدخر جهدا لمنازلة عدوا! فلقد أقام ميتا –أوهذا ما يشاع عنه- فماذا إن أمرهم بالثورة؟

- إقامة ميت لهو أيسر من إقامة هؤلاء الجبناء من سباتهم. لا يخرجون علينا. أمرنا مطاع فيهم ما أمسكنا تلابيبهم. فإن تركناهم طوعا لا يتركونا!

- أوتدافع عن الرجل؟ ماذا إن بلغ هذا قيصر؟

- أوتهددني؟

- فلتعتبره كيف شئت. سأغادر روما بعد أيام. سأقدم تقريرا لقيصر بما يدور ها هنا. فالرجل يستحق أن يعلم بما يدور بعيدا عن عاصمة ملكه.

- أويثير هذا الرجل البسيط حفيظة القيصر؟

أبصره بملامحه الخشنة بقسوة. لقد تجاوز حدوده كثيرا فيما يبدو، انصرف دون إلقاء تحية ولقد اكتظت جيوبه بأموال دفعت إليه من الهيكل شدت من أزره وعزيمته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إنه يقول بأنه ابن الرب فاعلم! –يقول قيافا رئيس الكهنة.

- أرب اليهود أم رب روما؟

- بل رب اليهود، لا يزال يدعي اليهودية بعد رغم أنه مهرطق.

ابتلع الرجل ما في كلماته من لغط.

كان (بيلاطس) قد استثار غضبا:

- فما شأن روما إذا؟ سووا أموركم سويا ولا تشغلوني بشأنكم معه!

- يجمع حوله الناس، يترنمون بأنه يجيء بالمعجزات. يحول الماء إلى صخر. ويعيد النور لعيون العميان. بل لقد تمادى حتى زعم أن أقام يهوديا من موته!

- لقد أكثرتم علي القول. فما تريدون مني؟

- فلتقتله!

- أحرك جند روما دفاعا عن رب اليهود؟ أجننتم؟

- بل يجيش الشعب ضد روما وقيصر. ولا يصبر حتى يأتي مملكتك من أطرافها!

هل يدرك هؤلاء الملاعين أي تهديد في كلامهم؟ أم لا يعون ذلك؟ أوكل إنسان يهدده؟

- فأتوا به فاقتلوه أنتم إن شئتم!

- ما في شريعتنا حكم بالقتل غير أن شريعة روما تتسع لذلك!

- أوتحتكمون الآن لشريعة روما؟

- أوتمنعنا عنها؟!

لشد ما يعجب لجهل بني إسرائيل وقسوة قلوبهم. غارقون في الظلمات. أساطيرهم مضللة تتنسم أساطير روما عن بدء الخلق فلا توافيها ولا تقاربها. حكاياتهم وعظاتهم بالغة الإملال. وها هو منطقهم مهترئ.

نبي لهم يقيم الأموات ويريدون قتله لأجل هذا. أي عبث؟ ومنافس يهدده بذات الرجل. ترى ما خطبه؟! كم دفعوا له من مال؟ هل يستحق هذا الرجل كل هذا الجدل؟

دعا بقائد المائة أعلم جنده بخبر بني إسرائيل.

منذ ثورة الهيكل ألم بخبرهم.

- يا قائد المائة. لتأت لي برجل منهم يدعى يسوع.

ارتجفت أوصال الرجل. هل هذا جزاء الإحسان؟ لقد شفى يسوع ابنه فلم يريده الحاكم إلا لشر؟

- لأي شأن تريده يا سيدي.

- يزعمون أنه يؤلب الشعب ضدي وضد قيصر.

- ما فعل ذلك قط! إنما يدعوهم للعودة لرب اليهود. ويريد أن يصحبهم إلى ملكوت السماء.

راقب الحماس في عينيه بتحفز، قال بغضب:

- ائتني به! وليخبرني هذا بنفسه إن شاء!

تلجلج قائد المائة، أيجيء بالرجل لحتفه؟

لا بد من أن يفعل شيئا!

ثم حتى إن أراد كيف يستخلصه من بين أتباعه؟

لقد عجب بعد إذ جاءه هذا الرجل الغامض.

- أنا زعيم بأن أدفع لكم به!

- والثمن؟

- كيف شئت. ماذا عن ثلاثين من فضة؟

- أولست تلميذه؟ كيف تدل عليه؟

- أبصرت فيه ثورة لا تلين، غير أن قد ركن إلى السلم والصفح. يحدثنا عن الحب، حديثه لا يقارب خشونة الرجال وأحاديثهم!

- أولم أبصرك من قبل؟

يتذكر ثورة الهيكل البعيدة، هربه المقيم، ورعبه الدائم!

- يا هذا! ما شأنك لكل هذا قول! أدلك على الرجل وتنقدني أجري وانتهى الأمر!

- لو شئت لقبضت عليه إذ يدعو الناس!

- لو فعلت لفتك الناس بك، ما يتركوك تمر إليه!

- إذا؟

- نجتمع معا في موضع قصي. سأغادره بالغد. واصحب جندك إليه فتحكم وثاقه!

أبصره قائد المائة بنظرة محايدة، بسهولة خدع الرجل وغدر به؟ تراه يعلم؟ ينفطر قلبه!

- يا معلم، فلنرتحل! –قال سمعان بحماس.

- لا جدوى سيدركوننا حيث كنا! –نطقها يوحنا جزعا.

- لا بأس عليكم، إنما يطلبونني، فإن ظفروا بي ما بالوا بعدي بأحد!

- لن نسلمك أبدا –قال سمعان بعزم لا يلين.

قلب يسوع بصره في الجموع:

- أنتم تلامذتي، غير أن واحدا منكم يسلمني، بينكم شيطان –تنهد.

ذرفت عينا سمعان بالدموع وصرخ منفعلا:

- ذلك ما لا يكون يا معلم!

- أما أنت يا سمعان فتنكرني ثلاثا! ثلاثا قبل صياح الديك!

ذهل سمعان وود لو يصرخ أن «لا» غير أن يسوع تابع:

- لا تفـتأ تنكرني ثلاثا قبل صياح الديك!

ربت على كتفه:

- أنت بطرس. الصخرة، على هذه الصخرة ابن كنيستي. لتمد قدميك يا بطرس اغسلهما!

تراجع سمعان /بطرس ذعرا!

- هذا ما لا يكون! بل أنا أغسل قدميك يا معلم!

- إن من لم أغسل قدميه اليوم لا يكون معي في ملكوت الرب.

- يا معلم، فلتغسل قدمي لا قدمي فقط. بل يدي وشعري! يا معلم أريد أن أصحبك في ملكوت الرب.

- هلم إذا أغسل قدمك!

عمد يسوع إلى أقدامهم يغسلها واحدا واحدا وقد ارتسم على ملامحه الحزن.

وما أن فرغ من الغسل حتى التفت إليهم.

- ما فعلت لكم اليوم فليفعل بعضكم ببعض.

طوبى لكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون. طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الإنسان. افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا فهو ذا أجركم عظيم في السماء. لأن آباءهم هكذا كانوا يفعلون بالأنبياء. ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم. ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون. ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون. ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسنا. لأنه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكذبة.

تأمل وجوههم تعلوها رعدة، أبصر يهوذا:

- ما أنت مأمور به افعل!

حدق فيه يهوذا برعب، قبل أن يتابع يسوع:

- أقول لكم أيها السامعون: أحبوا أعداءكم أحسنوا إلى مبغضيكم باركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم. من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضا ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا. وكل من سألك فاعطه ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه. وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا. وإن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضا يحبون الذين يحبونهم. وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأي فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضا يفعلون هكذا. وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا

منهم فأي فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل. بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيما وتكونوا بني العلى فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار. فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضا رحيم. ولا تدينوا فلا تدانوا. لا تقضوا على أحد فلا يقضى عليكم. اغفروا يغفر لكم. أعطوا تعطوا كيلا جيدا ملبدا مهزوزا فائضا يعطون في أحضانكم. لأنه بنفس الكيل الذي به تكيلون يكال لكم.

نزل كلامه عليهم بردا.

غطوا في نعاس ثقيل.

تأمل وجوههم بشجن وحزن.

ربت على كتف بطرس الصخرة.

انتفض جزعا:

- سأكون إلى جوارك يا معلم.

- كتب عليك أن تنكرني ثلاثا يا بطرس فلا تجزع!

أنت الصخرة. على هذه الصخرة ابن كنيستي.

ارتسمت الدهشة على محيا بطرس. بينما ضرب يسوع على كتفه بقوة.

وتراءى لبطرس ذلك المجد! مجد يتوسط روما باسم يسوع!

- لتسمع جيدا ما سأخبرك به. وليكن سرا لا يفارقنا.

وانساب يسوع في الحكي سرا لم تدونه الأناجيل! ومجد لم يك كأي مجد!

تثاقلت أنفسهم، هبوا من النوم. بينما أعينهم تغط في النعاس.

بينما عينا بطرس غائرتان بالمعرفة. مثقلتان بما خبر. والمجدلية خائفة وجلة مرتابة، في حين قال يهوذا: - إني جائع!

- الجوع سيقتلني!

تبادلوا همهمات الجوع بينهم بينما تبادل بطرس ويسوع والمجدلية النظرات.

- ترى لو تغمدنا الرب بمائدة من السماء؟

بدا التساؤل مرحا غير أنه سرعان ما أخذ بجدية.

- هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ونعلم أن قد صدقتنا؟ ونكون عليها من الشاهدين؟

- أولم تؤمنوا بعد؟!

أورثه سؤالهم حزنا وهما.

- بلى. آمنا. غير أنا نريد أن نعلم أن قد صدقتنا.

- ومن يكفر بعد ذلك منكم؟

ازدردوا لعابهم.

- لا نكفر بعد ذلك أبدا! وإلا يعذبنا الرب عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحلقوا حول مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب من الطعام.

عبوا بطونهم بما لم يعهدوه قبلا في حياتهم البائسة.

بينما عينا يسوع تجول فيهم.

- سيسلمني منكم أحدكم!

تحلقت أعينهم رعبا. بينما ارتسم الذعر على محيا يهوذا مضطربا حتى أسقط بعض الملح أمامه. لقد كتب عليه يومئذ أن يلتحف الخيانة أبدا!

بينما ربت على كتفه يسوع وهو يقول بخفوت:

- ما أنت مأمور بفعله فافعل!

فانطلق يهوذا لوقته.

- قوموا! صلوا! سرعان ما أترككم وتتركوني!

يناديهم يسوع علهم يكونون إلى جواره هذا الوقت وقد تسلل الخوف إلى نفسه!

يلتحف الصلاة.

ينادي الرب، يدعوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا أريد أبدا أن أصدر عليك حكما بالموت. إنهم يدفعونني دفعا! أولئك اليهود قوم ملعونون!

لا يعرفون ما يطلبون، ولا يطلبون إلا الجدل والكراهية. تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى! لأول مرة منذ وليت يجتمعون، واجتمعوا على ماذا؟ على قتلك. هيا أيها الرجل اللطيف! أعلم ألا رغبة له في الملك، ولا في زعزعة استقرار روما! الطيبة بادية على ملامح وجهك! أجبني.

تأمله (بيلاطس) مقيد إثر اقتياد قائد المائة له.

- لم يقاومنا، لقد دل عليه يهوذا ومنح أعطيته ومن ثم قيدناه، سيدي – ارتجف قائد المائة- لم يطلب ملكا ولا مملكة!

مال عليه (بيلاطس):

- أملك اليهود أنت؟ ذلك الذي يزعمون. –تابع بصوت خفيض، قل «لا» تكفيني منك.

- إن مملكتي ليست هنا!

- ساذج غر!

غاضبا كان (بيلاطس) يفكر، روما لم تفق بعد من ثورة سبارتاكوس، لم تنسها، تذكرها صباحا وعشية.

روما ليست قبلا بثورة جديدة. ومن الشرق؟!

لن يتركه هؤلاء الملاعين، سيقولون زعم بمملكة له في روما ويتطاير الخبر إلى قيصر بأن واليك يغض الطرف عن ثورة وليدة!

برز رأس (قيافا) العجوز جزلا.

- احكم عليه بالموت!

بدأ اليهود في التجمهر يشهدون الرجل!

- أَوَتَكُونُ أنت أَيْضًا مِنْ تَلَامِيذِ هٰذَا لرَّجُلِ؟

ساءلت الجارية بطرس المرتكن إلى ركن في موضع قصي، المرتجف المرتعد.

- لا!

قالها مرتجفة زائغة!

- أولم تجئ معه؟

- لَا أَعْرِفُهُ وَلَا أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ!

التفت إليه أحد الجند.

- أَمَا رَأَيْتُكَ فِي لْبُسْتَانِ مَعَهُ؟

- كلا كلا لا أعرفه!

قالها بطرس جزعا وخوفا لا يكاد يبين قبل أن يستمع لصياح الديك، مرتعبا أبصر عيني يسوع، تلاقت أعينهما فأقر بالخذلان وأطرق.

- دعكم من الرجل ولنر إلام يفضي أمر هذا الرجل، إن كان سيسجن أم يطلق السيد سراحه.

- بل يقتل!

قالها قيافا حاسما ودار بعينيه في الجموع، أرجع البصر كرتين فالتقت عيناه بعيني مريم، أنكرها لوهلة غير أن التحدي في عينيها جعله يركز في بؤبؤيها قبل أن يرتعد رعبا!

التفت (بيلاطس) إلى قائد المائة:

- ادفع بالرجل إلى عموم اليهود ومعه باراباس ذلك القاتل المسجون. اليوم يوم عيدهم ومن عادتنا أن نفرج عن أحد سجنائهم، فلن يطلبوا القاتل أبدا!

ما أن خرج قائد المائة وأمام الجموع إذ صرخوا:

- اقتلوا يسوع ملك اليهود! الموت للمهرطق! الموت للدعي!

- إنه يوم عفو، أنعفو لكم عن يسوع؟

- بل أطلق باراباس! الموت ليسوع!

زاغ بصر يسوع في حين رأى الدمع في عيون مريم وبطرس. لم يتوقع أن تثور تلك الجموع ضده؟ فماذا فعل قيافا ليلته الفائتة!

يسير في طرقات المدينة بين الجموع، يحمل صليبه وفداءه يساقط فيطرقونه بالحجارة. يوسعونه ضربا! يهتفون الموت لملك اليهود هازئين.

على الصليب يقاسي الألم، الوحدة، الخذلان.

يرتفع على الصليب مبصرا جموع البشر ضده.

هرج ومرج والكل يطلب قتله.

مصلوب وكل من مثله مصلوب. ارتفع به الجند على الصليب. دقوا المسامير في رسغه.

بقوة –بقسوة. لم يبالوا بالألم المرتسم على محيا وجهه.

ولا الوجع الناطق خلف كتمان صرخته.

دقات عنيفة قاسية تنخر العظم والجلد والروح.

وتدق الوجع، تطلب الألم فتدركه.

(أبت، لماذا تركتني؟!).

صوته يخترق الآفاق ويترك تساؤله موصوما بالخذلان. لماذا تركتني؟

وحدي بين الجموع، أواجه مصيري، نهايتي.

أدرك في قرارة نفسه ألا ناصر له الآن. أتكفيرا لخطية لم يأتها؟ وفعل لم يجئ به؟

تاج الشوك يخترق أعصاب رأسه، معلق ومن فوقه كُتب (ملك اليهود).

- أوأنت ملك اليهود؟ أوهكذا تزعم؟

- مملكتي ليست ها هنا!

يقترب منه جندي روما، قائد المائة! ملامح وجهه مألوفة، يلمح الغضب والحنق والسخط على محياه.

والألم كذلك، الكثير من الألم.

يرفع حربته، فتهتاج الجموع رفضا.

يريدون أن يطيل ألمه، لا تدركه بالقتل. لا ترحمه! ونظير كل رحمة دعا لها يغص بالألم!

ومن قبل الألم خذلان وترك!

غير أن الجندي أدركته الشفقة، فعاود رفع حربته، ما ضير تأنيب ما من قائده نظير ارتياح جسد هذا المعذب.

غير أن ما أن رفع حربته حتى لمح تصلب وجه يسوع قبل أن يشهق شهقة أخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحكي الكتب الموثوقة –فقط بعدد من يؤمنون بوثوقيتها- عن أن الجندي غرس بحربته يسوع فقتله رحمة به.

وبأنه دفن!

يحكون أن يهوذا لم يتحمل أن يرى يسوع مقتولا فذهب فشنق نفسه يأسا.
المجدلية كانت هناك تئن وتبكي.
وبطرس يرتعد خيفة إذ أنكره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألم رهيب يطرق رأسه.

يرتج جسده.

طرقة، اثنتان، ثلاث..

ينتفض جسده من جديد. يتذكر تلك الذكرى البعيدة، المسامير تدق في رسغه، يئن ويستغيث.

ظلام.. ظلام دامس يحيط به.

يعاود قلبه النبض. هل مات؟ هل بعث من جديد؟

أي قبضة لعينة تقبض عليه، يحاول أن يحرر يديه، يحاول نزع أردية تكبل حركته.

يتلمس بيسراه ما خاله طرف حبل. وبدأ في الإدراك.

أين هو؟ ومذا حدث؟ أقبضت كفه على كفن؟

منذ أيام كان هناك مع الصحب، فوق الجبل. خائفا، يقرعه الخوف والقلق.

وبدأ في التذكر.

- يهوذا الطيب. أعلم أنك تتوق للخلاص.

كان هذا في الليلة السابقة للصلب!

- هل سنقاتلهم أخيرا يا معلم؟ سندفعهم دفعا نحو روما؟

- أولا تعرف سوى القتل؟

- أي خلاص إذا!

- لدي اقتراح أفضل يا يهوذا الطيب، فاسمع!

- أسمعك.

وقص عليه مخططه.

- أعلم أنك تتخفى دوما عن أعين الجند. يطلبونك لثورتك القديمة عليهم وحربك لهم. لحيتك المخضوبة بالحمرة. إصابات وجهك تنطق بأي معركة خضت.

يرتسم الذعر على محيا يهوذا، ذعره القديم، لقد كان فردا في الثورة القديمة التي سعت إلى إنزال رموز روما من على الهيكل وتدميرها. قتل الصحب والرفاق غير أنه تخفى ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ومن يومها يتوق للخلاص، للانتقام! وللتخفي عن أعين الجند. يرى فيهم قتلة الصحب.

- يهوذا. أعلم أنك تتوق لحرب جديدة. وثورة لا تبقي ولا تذر. غير أن الثورة لا بد لها من وقود يؤجج فعلها.

- أكون لها مددا.

- لا يصح ولا يستقيم. بل أنا!

- ماذا تعني يا معلم (يزيغ بصره) لا تلقني غياهب الهلكة والحيرة. أخبرني أي أمر تريد وأنا بين يديك خادما.

- لا بد لأن تشتعل الثورة من محرك، من حدث جلل.

- أجل.

- ستذهب إلى جنود روما.

- أوتسلمني؟ سيقبضون علي حتما!

- اسمع! سوف تخبرهم بأنك تعلم موضع ذلك الجليلي الذي يدعي نفسه ملك اليهود!

اتسعت عينا يهوذا رعبا.

- ثم تصحبهم إلى موضعي!

- سيقتلونك! (مهتاجا).

- أجل.

- سيصلبونك على طرقات المدينة. (تضاعف جنونه).

- بالضبط. وستنجو أنت لتشعل...

- لا لا. هذا لا يكون وإن أخذت!

هذا ما لا يصير أبدا يا معلم!

قالها يهوذا برعب وخوف حقيقيين.

- ستشتعل بقتلي ثورة لا تلين! لا تهادن! سيثور الصحب والعدو والجمع! سيكون إيذانا بحرب روما، وبشارة بدعوتي!

- اللعنة! لا يكون أبدا! وتموت أنت؟ ولأجل ماذا؟ لأجل أولئك الغوغاء. ركب الكسالى التافهين؟

تحرك يهوذا يمنة ويسرة في جزع.

- لا لا. لا يكون. ومن يسلمك؟ يهوذا؟ أما وجدت غيري ليكون خائنا؟

يسترجع عقله فراره القديم من الجند. أسر أصدقاؤه وأحبته! وتنزف دواخله!

- لا مناص يا يهوذا الطيب. لقد اخترتك لأنك أجدرهم بهذا الفعل وأقواهم عليه! أنت القوي الصلب ذو العزم!

- هذا حمل ثقيل يا معلم، ثقيل جدا، ينوء بحمله يهوذا!

- لا مناص يا يهوذا. لا مناص!

وتنازعت يهوذا الحيرة. أيسلمه حقا؟ ومن ثم؟

ينشئ على رماد قبره ثورة لا تلين! لا تبقي ولا تذر؟

أيتحقق حلم بني إسرائيل على أنقاض جسده؟

بل على أنقاضك أنت يا يهوذا! ستنصب على عتبات التاريخ خائنا!

- أنا؟ أكثرهم إيمانا به وحبا له وفداء لأجله!

وهنا موضع الفداء! فلتسلمه تحقيقا لأمره! وتحقيقا لمجده!

- اللعنة! أي معضلة تلك وأي بلوى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ستشهدين موتي وقيامتي يا مجدلية!

ينتفض قلبها هلعا!

- لا تقل مثل هذا! أفتديك بنفسي وروحي!

- ستشهدين قيامتي! يومها سيؤمن بي الجميع!

سينتهي ما أحسه من ألم، سأخلص البشرية من عذاباتها!

- حسبك أن خلصتني من عذاباتي وآلامي! أن رددت روحي، أن أبصرتني الطريق!

- ذنب البشر يثقلني، محمول على كتفي، يرهقني!

- دعك من البشر، وبغض البشر، وحروب البشر. لنأوي إلى مكان جديد لا نعرف فيه أحدا. ولا يعرفنا فيه أحد. وحدنا.

- ربما يتحقق ذلك يا مجدلية حال قيامتي! سيؤمنون بي حينها، سيغور الحزن في نفوسهم إن قتلت. أما الآن فلا تبطلي ما خططت، فلقد أخبرتك كيلا تجزعي. يهوذا وبطرس سيتكفلان بالأمر. لا تقربي قبري إلا ثالث أيام دفني وحينها يذيع في القوم نبأ قيامتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان من أوحى له بالفكرة قائد المائة إذ أخبره بسعي القوم له ليقتلوه.

فكر في أن يولي وجهه هربا. لكن ذكرى قيامة لعازر ألهبته.

فقرر خطته ووضعها مع قائد المائة.

سيخبركم يهوذا بموضعي، ومن ثم تقبضون علي. سرعان ما سيتحول الأمر إلى محاكمة لن يقبل فيها أحبار اليهود سوى بصلبي. واليهود؟ سيقبلون ما يُجتمع عليه لا يبدلون ديدنهم من الهوان. ومن ثم أصلب. فلتكلف بي جنديا رحيما من جندك. سيمدني بتلك.

دفع يسوع إلى قائد الجند بحبة تشبه حبة القمح. سيدسها تحت لساني سرا. سرعان ما أبدو كالموتى. تذكر إذ فعل مثلها لعازر قبلا ليجربها. حينها فلتسارعوا بدفني. جنديك الطيب لن يقبل بأن يغرس الحربة في جسدي. أكد يسوع على تلك النقطة! لو فعل لمات! وكل إليه الدفن! جندي واحد يدفنني، سأمنحك ترياقا يغسل به جسدي فلا أبلى، لم نتمكن من فعل ذلك للعازر فانتن! فكر يسوع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ليلة التسليم اختلى ببطرس ينبئه من سره ودوره في المخطط!

- لن أموت يا بطرس العزيز.

- حقا؟ أويتجلى الرب لينقذك؟

- اسمع! إذا سألوك عني فلتنكرني!

- لا يكون أبدا!

- بل حق ذلك يا بطرس. فلقد نذرتك لفعل جليل لا يقوم به غيرك!

إذا ما علوت الصليب فسأتصنع الموت، وسينزلونني ليدفنوني.

- وإن مثلوا بك؟

- لا يكون أبدا! لا يعبؤون بقتلي لهذا الحد. للرب جنده حيث حل!

فإذا ما دفنت فاذهب وأصحابي إلى مخبأ قريب لا يعرفكم فيه أحد، حتى إذا ما استأمنت، وهدأت الضجة فائت قبري فأطرقه ثلاث طرقات كمثل ما أنكرتني، براءة لك من ذلك الذنب. ومن ثم تفر وتهرب والحق بصحبك تمهيدا لقيامتي!

- أوتقوم؟

- ويتحقق مجد الله في الأرض! فافعل!

حينها يجيء دور المجدلية. ستراقب القبر حتى يحين الموعد.

موعد استيقاظي من غفلتي. لم يتيسر للعازر من يدس سائل حفظ الجسد في ماء غسله، أما أنا فتوفر لي فلا أرم.

تحوم المجدلية حول القبر. في اليوم الثالث. سأعلم حلول الوقت بطرقات بطرس. وتبصرني المجدلية.

تفك أقمشتي وأرديتي وتذيع في الملأ بأني قمت.

قيامة جليلة تليق بابن الرب.

يظل ذكرها في الأذهان معجزة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالأمس كانت تتفكر في الطفل الذي ينمو في بطنها من نبت يسوع. حين غشيها النوم وطرقها كابوس.

تجوب سبل المدينة جريا حاملة الطفل.

يقلب بصره في الجموع. غافلا عما تقذف به ألسنتهم.

- زانية!

- عاهرة!

- بغي!

- من أين لك هذا الطفل يا مريم؟!

يتساءلون وتستدير أعينهم بغيا ويسيل لعابهم لهاثا.

ودوا حديثا يلغون فيه ومريم تدخل عليهم بطفل من غير أب.

يرجمونها بالحديث. يضيقون عليها الطريق. بعض الأطفال بدأوا في رشقها بالحجارة.

الجو خانق. ودموعها تقترب.

واستيقظت دامعة العين نحو قبر يسوع.

لا أحد.

الظلمة تظلل على المكان.

تقترب.

وترى انفراجة في القبر حيث تطل عيناه.

- لقد قام! بالحق قام!

تصرخ!

- ألم أعدك بأن أعود؟

تتهلل طربا. تشرق عيناها وتتلمس جسده. تنزع الأثمال عنه.

- هل نُفذ كل شيء كما خطط له؟

تتلجلج.

- لقد قتل يهوذا نفسه!

- المسكين!

تتسع حدقتا يسوع!

- أوقد فعل؟

- أجل.

يطرق.

- لم يتحمل الأسى المتحصل من صلبي. لم أتوقع أنا أيضا أن يسلمني الأنصار بهذه السهولة.

هلمي بنا يا مريم من هنا..

- إلى أين؟

- إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد. ولا نعرف فيه أحدا. لنبدأ بداية جديدة. حيث لا كهنة ولا ملأ ولا يهود ولا قيصر! أوتصحبينني؟

- إني معك! إلى آخر حدود الدنيا.

جذبها إليه بشدة وتعانقا. قبيل صياح الديك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞)

تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20/ 10/ 2018م

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء
أوديف
اسمها زينب
بابل – العراق – ٢٠٠٠ ق.م:
-مكة – ٢ هـ:
آبار بدر - جنوب غرب المدينة -١٧ رمضان ٢ هـ - ١٣ مارس ٦٢٤م:
قرب جبل أحد – ٣ هـ - ٦٢٥ م:
مكة - ٢٠ رمضان ٨ هـ - ١ يناير ٦٣٠ م:
المدينة - ١٢ ربيع أول ١١ هـ - ٨ يونيو ٦٣٢ م:
المدينة - ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ - ١٧ يونيو ٦٥٦ م:
كربلاء -١٠ محرم سنة ٦١ هـ - ١٢ أكتوبر ٦٨٠ م:
تكوين
تكوين ثانِ

Notes

[←1]

(1) أغنية لتيري جاكس

(2) (تکوین ۱۸: ۲) [←2]